الرواية العالمية ١٢



نفرتيتي وحلم أخناتون

تأليف : أندريه شديد
ترجمة وتقديم : صادق سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة :

أ. د. سمير سرحان

رئيس التحرير :

فتحي العشري

المشرف الفني :

رفيق يونس

الرواية العالمية ١٢

نفرتيتي وحلم أخناتون

تأليف : أندريه شديد

ترجمة وتقديم : صادق سليمان



١٩٨٨

★ هذه هى الترجمة الكاملة لرواية « نفرتيتى وحلم اخناتون »

Andrée Chédid
Néfertiti et le rêve d'Akhnaton,
Flammarion, 1974.

مقدمة

لعل ما يجعل تناول رواية « نفرتيتى وحلم أخناتون » بالترجمة أمرا عظيم الفائدة فى عالم المعرفة ، انها من تأليف كاتبة مصرية فرنسية شهيرة معاصرة هى : « أندريه شديد » .

وليست شهرة الكاتبة وحدها هى الدافع وراء هذه الترجمة ، وانما كان وراء ذلك أيضا عاملان آخران غاية فى الأهمية : الأول هو أن هذه الرواية التاريخية ظهرت منذ وقت ليس ببعيد ، فقد نشرت سنة ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين ونالت بها الكاتبة « جائزة أفريقيا البحر المتوسط » كما أن موضوعها غاية فى

الامتاع الفكرى ، فهى عن عصر من أزهى عصور مصر الفرعونية ٠

والأمر الثانى هو أن الكاتبة مصرية المنبت ٠ فهى وليدة القاهرة العريقة سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ، من أبوين أحدهما سورى والآخر لبنانى ، ولكن بناءها الفكرى وغذاءها الروحى كانا بين جنبات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، حيث حصلت على درجة الليسانس فى الآداب ثم قضت بعد ذلك ثلاث سنوات فى لبنان قبل أن يطيب لها المقام مع زوجها الفرنسى فى باريس من سنة ألف وتسعمائة وست وأربعين ٠

وهكذا تكون الكاتبة قد قضت ربيع عمرها فوق أرض مصر الخضراء فكانت هذه الأرض فى النهاية ملاذا لفكرها الغزير ومشاعرها الرقيقة ترتمى فى أحضانها كلما غلبها الشوق وجرفها الحنين الى الماضى العطر الجميل ، فينطلق القلم معبرا عما يجيش فى صدرها من اعزاز لهذه الأرض الحبيبة ٠

وهذا ما حدث عندما تناولت هذه القصة بالكتابة، فها هى مصر الخضراء ، الواحة الغناء الوارفة الظلال ، ترتع الكاتبة تحت أشجارها وبين جداولها الرقراقة ،

وها هى بأسلوبها العذب البديع تتغنى بحضارتها العريقة عراقة السنين معلنة للدنيا كلها غربها قبل شرقها ــ هذه مصر الأصيلة ، مصر الحضارة ، مصر التوحيد ، مصر منبت الديمقراطية منذ آلاف السنين.

ولسوف يجد القارىء نفسه فى ثنايا الكلمات لأن الأديبة بحسها المرهف ونبضها الرقيق استطاعت أن تنسلخ من ذاتها لتكون هى / هو فى النهاية ، متحدثة باسمه ، قارئة أفكاره ، مستشعرة أحاسيسه نحو حضارة مصر الضاربة فى أعماق التاريخ ، تلك الحضارة التى قدمت الكثير والكثير ، ومن بين ذلك الكثير قدمت « أخناتون » ذلك المصرى الذى سبق الزمان بزمان ، فعلم البشرية كلها نظام الحكم الديمقراطى السليم وعبادة التوحيد وفن العمارة والتشييد .

ولسوف يستكشف القارىء كذلك وصفا دقيقا للنظام الاجتماعى الذى ساد فى تلك العصور . وما كان فيه سادة القوم من كبرياء وترفع ، وأى سلطان كان للكهنة ورجال الدين فى تلك الأزمنة .

كما سيرى فى قراءاته صورة حية لعامة الناس وطبقة الكادحين فى المجتمع المصرى ، وكيف كان يعامل

هؤلاء البسطاء من قبل النظام الحاكم ، وما كان يلاقيه هؤلاء من مهـانة وذل وكيف كانت مشـاعر اخنـاتون الرقيقة وزوجته حيالهم •

سيرى مصر القوية ذات النفوذ الممتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ليستشعر العزة والفخار ان كان مصريا وليقف اجـلالا واحتراما لهـذه الأمة ان كان من غير أبنائها •

هذا هو نسيج الرواية التى استوحتها الأديبة من قصة الفرعون الأشهر اخناتون ، وان كانت الحقائق التاريخيـة بمنأى عن الدقة المتناهية كما أقرت بذلك الكاتبة نفسها ، فان ذلك لا يؤثر فى قيمتها الأدبيـة الرفيعة ، تلك التى تقيم فى النهاية الجسور بين ماض عـريق مزدهر وحاضر مشرف مستنير لبلد عـريق فى الحضارة • ولترسم صورة أكثر سعادة من خلال مستقبل مشرق قائم على الحب والتسامح ونبذ العنف والأحقاد •

وليس هذا مقام الحديث عن أعمال الكاتبة الخلاقة • وسوف نكتفى هنا بالاشارة وبايجاز الى بعض أعمالها اتماما للفائدة •

لقد خاضت الكاتبة فى بحور الشعر منذ الثانيـة

عشرة من عمرها ، فكتبت ـ على سبيل المثال « نصوص الى الأرض الحبيبة » ونذكر لها فى مجال الرواية « النوم الخاطف » وكذلك روايتها الشهيرة « اليوم السادس » •• وفى مجال القصة القصيرة « الجلد الضيق » •

كما كتبت للمسرح كذلك ، فنذكر لها «بيريتيس مصر » كما كان للأطفال نصيب من انتاجها الأدبى فكتبت لهم « القلب المعلق » الى غير ذلك من الأعمال •• هذا وقد حصلت الكاتبة على جوائز أدبية عديدة •

صادق سليمان

الجزء الأول

مدينة الأفق « الموقع »

أقيمت مدينة الأفق سـنة الف وثلاثمائة وتسع وستين قبل الميلاد • ويقع المكان الذى اختاره لها « أمينوفيس الرابع » الملقب « بأخنـاتون » وزوجته « نفرتيتى » فى منتصـف الطريق بين « ممفيس » التى كانت مكان القاهرة الحالية وبين « طيبة » التى هى الآن مدينة « الأقصر » على الضفة الشرقية لنهر النيل •

وجدير بالذكر أن نفرتيتى شـاركت زوجها « أمينوفيس الرابع » فى اختيار هذا الموقع من أجل بناء العاصمة الجديدة وهى الآن « تل العمارنة » •

فى هذا المكان ، تبعد الصحراء عن النيل فتبدو الأرض على شكل نصف الدائرة بطول عشرات الكيلو مترات وبعرض يقترب من خمسة كيلو مترات •

وفى أحضان هذا المدرج الصخرى تم نحت مسلات ضخمة ، فكانت هذه المسلات بمثابة امتداد لحدود المدينة . وقد نقش عليها تاريخ البناء وقصته . كما كتب عليها كذلك :

« ها هو المكان الذى لا يدخل فى حوزة أى من الأمراء أو أى من الآلهة . ولا يمتلكه أحد . هـــذا مكان الجميع .. هنا تجد الأرض سعادتها . وسوف تسعد بها القلوب » .

هدم المدينة سنة ١٣٤٧ ق٠م

حينما استولى القائد « حور محب » على السلطة ، قام بتنصيب نفسه ملكا على البلاد ٠ وجعل مقره فى « طيبة » العاصمة القديمة ٠ وتجلى حقده ضد أخناتون وزوجته على الدوام ٠ فكان لا يفتأ يظهر هذا الحقد نحو كل ما أنجزه الزوجان وأقراه ٠

قام حور محب بارسال الآلاف من الرجال الى « مدينة الأفق» فقاموا بهدمها وشوهوا مقابرها وهدموا المنشآت بها ٠ كما حطموا اسميهما بطريقة وحشية قاسية : لقد أزالوا بالمطارق الضخمة اسم اخناتون وزوجته بعد أن كانا منقوشين على الجدران ٠

وهكذا ماتت الى الأبد فكرة احياء المدينة وضاع الأمل فى بنائها من جديد حتى أن من بقى من سكانها قام بهدم المنازل أيضا ٠ لقد سووا بها سطح الأرض ، بل وغطوا الأرض بطبقة

سميكة من الأسمنت على نحو يوحى بأن القائمين بهذا الأمر أرادوا أن يبيدوا من الوجود مكانا ترتع فيه الأمراض • وتنبعث منه العدوى •

ولم يبق قائما سوى القصر العلوى • وقد لاذت اليه الملكة نفرتيتى ومعها الكاتب « بوباستوس » • هذه الملكة التى شهدت الخراب الذى حل بالمدينة ، والتدمير الذى حاق بها •

أنا « بوباستوس » الكاتب ذو الأصابع الخفيفة • تلميذ « أمينو » وولده • وجدت الملاذ فى معية الملكة « نفرتيتى » هناك فى القصر الشمالى • سوف أكتب ما تمليه الملكة على دون أن أغفل عن كلمة واحدة ، وسوف أسجل ما تجود به ذاكرتى من خواطر كذلك •

ها نحن — هى وأنا — مهملين فى أقاصى المدينة « مدينة الأفق» أو بالأحرى فى أقاصى ما بقى من أطلالها •

لقد أمر القائد « حور محب » الذى استولى على السلطة منذ أعوام ثلاثة ، أمر بالقضاء على حلم « أخناتون » وهدم مدينته • وسوى بها الأرض فصارت فى حكم العدم • ولم تعد غير محيط من الأحجار المترامية والصخور المتكسرة •

أقوم بتسجيل هذه القصة فى أول فصول السنة حيث أواسط شهر الفيضان • وقد جلست « نفرتيتى » وظهرها الى النافذة • جلست أمامها فى زاوية من الحجرة ، أحاول جاهدا أن أصهر صحبة الجدران ووجودها • وأن أذيبها فى أعماقى • فلابد أن يحيط بالملكة غياب وتيه وفراغ كى يصل صوتها الى شفتيها ويغزو ما بيننا من فراغ وليصل الى مسامعى فى النهاية •

أحاول ألا أكون ، ألا أكون سوى اصبعين ممسكين بريشة منغمسة في مداد أسود ، اصبعين نشطين ، تدركان معاني الكلمات التي طال احتباسها كي تقوم بترجمتها الى علامات على أوراق البردي .

أنا الكاتب البائس ، سليل الطبقة الدنيا ، أصابتني الشيخوخة ، فصرت ذا كرش سمين وبصر ضعيف . أنا القليل الموهبة الذى أقلع والده وسيده « أمينو » عن أن يعهد اليه بالوظائف الرفيعة من زمن طويل .

وها هو فى النهاية يسند الى مهمة تخليد مدينة الأفق . وحيث أن صميم واجبى أن تكون مدينة خالدة ، لذا سوف أكتب للمسافرين ، للبحارة ، لكتاب البلاد البعيدة العديدة . للأحياء فى هذا الزمان ولمن سوف يأتون . أكتب حتى يتناقل الكتاب تاريخ أخناتون وزوجته نفرتيتى . ذلك التاريخ القريب الى النفس والذى جهله الناس رغم ذلك ، كما ابتعدوا عنه . سأكتب ليقوم الكتاب بتسجيله ، ولكى ينقلوه من مخطوط الى مخطوط . وليتناقله الرواة من لسان الى لسان كي يضيف كل عصر انطباعه من خلال ألفاظه الخاصة . وحتى لو حادت القصة عن الطريق فلن يصيبنى الهلع ، لأن صداها سيظل نداء وأملا يستطيع كل الناس سماعه والتطلع اليه . وذلك حسب ظنى على أقل تقدير .

وسوف أكتب حتى تستطيع هذه المغامرة أن تجذب انتباهك أيها القارىء العزيز . سأكتب من خلال ذاتى وذوات آخرين وآخرين لكى تستأثر هذه المغامرة بفؤادك ولبك ، أيها الصديق من غير الزمان .

وتتابع نظراتى نفرتيتى .

أسير وراءها طوال النهار بلا انقطاع لكى أصغى لما تقول . ولفرط حرصى على دقة متابعتها ، أستشعر أحاسيسها وهى تأوى فى النهاية الى أعماق عظامى .

وأحيانا تبدو الحياة عبئـا ثقيلا على الملكة فيصير جسدهـا ثقيلا وكأن الروح فارقته . وهنا تعجز الكلمات عن الخروج الى حيز الوجود .

ولكى أبعد عنها الظلام ، ذلك الظلام الذى يغلف أفكارها . أقوم بالرقص والغناء بصحبة ضارب الطبل أو عازف القيثـار ، أقوم بأى شىء كى تطيب لها الأحوال وأفرج عنها تلك المشاعر . وغالبا ما أستطيع ذلك .

وفى أكثر الأحوال ، تقوم بالسير بعيدا فى الحجرات الجوفاء ، وتؤثر أن تبعد عن الأنظار مع اشراقة الفجر ، هناك فى الطرقات المؤدية الى الصحراء . ولأنى على يقين من أنها تفضل الوحدة ، أقوم بالانتظار أمام القصر أسفل السـلم ، تحت شجرة جميز عجوز .

وهنا أطلق سراح الماعز لتأكل العشـب حولى وتلعق رقبتى بلسانها الرمادى . وبهذه المناسبة أود أن أشير الى أننى فقـدت الثعبان « سـنب » عندما غرقت المدينة . وذلك بعد أن توالت علينا المصائب هنا . لذلك أستشعر المرارة بين جوانحى .

سأقوم بسرد ذكرياتى فوق هذه اللفافة من ورق البردى بعد أن تفرغ الملكة من كلامها . فقد عايشت بناء هذه المدينة وعشت فى أرجائها من البداية الى النهاية ، لكننى عشت هناك فى الجانب الآخر حيث كان يعيش البسطاء من الناس . وقد خيل الى فى بعض الأحيان أنى أنظر الى أحـداث التـاريخ نظرة أكثر تحـررا

ودقة ـ وأنا هناك فى الظل كما كنت أحب ـ من نظرة أولئك الذين يقومون بصنع أحداثه ·

تجلس نفرتيتى ـ هذا المساء ـ وظهرها الى النافذة ، ونهر النيل الجارف المتلىء ينساب طاغيا على ضفتيه فى هذا الفصل من العام · والطيور المهاجرة تخط السماء بأسراب تتوارى هناك نحو المستنقعات · ونظرات الملكة تحدق فى ناظرى ولا ترانى !

ولكى لا أشغلها عن متابعة أفكارها ، أحرص على أن تلمس ريشتى الورقة بحذر شديد لتخط السطور تلو السطور بصوت لا يقطع تسلسل أفكارها المتتابعة ·

ويتوقف الزمان حولنا عن المسير · ويعظم السكون · فأكف عن الكتابة كى أشارك فى صنع هذا السكون ·

وأخيرا تدير « نفرتيتى » رأسها وتدقق النظر طويلا فى الأفق ، هناك حيث يصبغ الغروب كلا من الأرض والسماء بلهيب أحمر ، ولا يلبث الظلام أن يغطى ضياء الكون ·

وتنهض الملكة لتتجه الى السطح مرتفعة الهامة · تسير بخطى وئيدة · تتقدم بخطى بطيئة · بطيئة · تحاول أن تجتاز دوامات عميقة وصعوبات غامضة كيما تستطيع أن تبدأ المسيرة نحو أحداث الماضى ·

تدير الى ظهرها وهى على يقين أنى أسير وراءها بخطى خفيفة وها أنذا أجد مكانا بالقرب منها هناك على السطح · وهى تعلم تماما وبغير أن تلتفت وراءها أنى هناك قابع على الأرض ، راغب مثلها فى أن أعيد بالقلم حلم أخناتون · أعيده الى الحياة ·

وها هى تتكىء على السور وتتأمل فى أشعة القمر ما بقى من المدينة ، لقد غمرها الصمت وأصابها الوهن لتلك النهاية الأليمة ·

والآن تنحنى نحو الأطلال انتظارا لرد قد يجىء لكنة لا يجىء . ويستمر الانتظار والصبر . وتميل اكثر الى الأمام . فسوف ينبعث شيء من هذا الانتظار ومن هذا الصبر . سوف ينبعث من جديد ويبدأ فى استعادة الأنفاس .

وتتأمل « نفرتيتى » هذه الأرض بملء عينيها أملا فى احياء ما مضى . ورغم ما أصاب عينها اليسرى من ألم قديم كان سببا فى انتفاخ جفنها ، الا أن ذلك لم ينل من عظمتها وهيبتها . ومع ذلك فقد كان هذا الجمال الجريح سببا فى اقترابها وتواضعها . وها أنذا أنسى ما بيننا من مسافة ، أنسى فارق الأصل والسلالة والطبقة الذى ينهار وأتحدث عنها دون تعظيم وأناجيها كما يناجى الأخ أخاه أو أخته .

« ... لقد قام أخناتون بتخطيط شوارع المدينة يا بوباستوس . تعاهدنا سويا على اقامة هذه الأبنية . ويكفى أن أغمض عينى كى تنهض المعابد والمساكن من جديد وتتنفس الحدائق من جديد . وحتى تلتقى الطرقات مرة أخرى من جديد .

الصبر يكفى أيها الكاتب . يكفينى أن أطيل النظر فى هذه الخرائب كيما تحيا مدينتنا من جديد وترتفع مرة ثانية . الحجر فوق الحجر بعيدا عن هذا المكان الموحش الخرب لتنهض عامرة فى النهاية وعلى وجه التقريب بعيدا عن ارادتى » .

أما أنا « بوباستوس » فأقول انهم سيدمرونها ، سوف يدمرونها ويزيدون من تدميرها . تلك المدينة . مدينة الأفق . لسوف يحطمون آثارها تحطيما ولن ينجو من ذلك أيضا كتلها الجرانيتية . وسوف تكون نهبا للأعداء وتسقط فى أيدى اللصوص . فالقبور والمعابد تغرى بسلبها . وسيأتى اللصوص

قريبا من بعدنا. سيأتون ومن جهات أخرى . يستشعرون رائحة النهب هذه . ويقومون بسرقة الأرض ونهبها فى أوعيتهم .

وأنا اذ أقول ذلك لا أدعى العلم بالغيب ، لكنى فى الحقيقة متفتح الذهن . وأنا كذلك لا أجيد التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل ، لكنى أحيانا أتصور ما سيكون ، كما لو كنت موجودا هناك فى ذاك الزمان . بل وربما يوافق تصورى ما يحدث بدقة متناهية .

لقد أصابنى الكبر وأخذت حالتى تسوء نظرا لضخامتى وقصر قامتى . ويجبرنى ذلك القصر أن أقف على أطراف أصابعى كى أبلغ الجرة الكائنة فى كوة بشجرة الجميز .

وقد حكى بعض أقربائى انى عندما قدمت الى الدنيا ، كنت أدير وجهى باصرار الى الأرض . ونبأ الكاهن أسرتى بقصر عمرى . وها أنذا قد تحديت قوانين غامضة وظللت حيا لم أمت ! فما كان من هذه النواميس الا أنى انتقمت لذلك ، فمنعت طبيعتى من الانطلاق فى النماء كالآخرين » .

وعندما كنت طفلا رضيعا ، كانت أمى تحملنى فى « خرج » على صدرها لتظل يداها حرة الحركة . وكانت وفاتها قبل أن تحفر ملامحها فى الذاكرة . فترك غيابها فى نفسى فراغا لا يستطيع شىء أن يشغله فى الحقيقة .

وكنت أذهب الى المدرسة فى مريلة رقيقة الحال قبل أن يقدم لى والدى التنورة والحزام . وكانت بشرتى تتأثر بقسوة الحر ولفحات البرد كما كانت كذلك تسعد باعتدال الجو . وكان والدى يطعمانى كميات كبيرة من لحم الحمير لما فيه من عظيم الفائدة وأثره فى نماء الأجسام . ولما كنت موهوبا فى الموسيقى

وقرض الشعر ، فقد دأبا على تقديمى الى الضـــيوف من الجيران لأرقص وأغنى دونما اعتبار للمكان طالما كان فى ذلك سعادة لى • وكنت أخفى قصر أطرافى بعصا منقوشة أضعها فى يدى • وكان الأطفال يلتفون حولى ويصفقون • وحتى الكبار كانوا يصـــفقون كذلك تحية لى • وكان ذلك يضفى على مزاجى الخاص احساســا بالغبطة والبهجة رغم خلقتى الخالية من التناسق •

وكما كبرت فى السن ، كبرت كذلك نفرتيتى وظهرت على ملامحها علامات الوحدة وحياة الشقاء • فصرت أرى فى جبينهــا وعينيها سطح بحيرة تعمل فيهـا الزوابع بدرجة جلية ، كما أن لأشعة الشمس الأثر البالغ فى وجهها •

وكنت على يقين قبل ذلك أن نضارة وجهها وبشرتها الناعمة سوف يغشيهن نسيج الشيخوخة المتكرمش • فهل يا ترى راودتها هذه الفكرة مثلما راودتنى وبنفس هذه الدرجة من اليقين ؟ وهل تفكر الآن فى هذا الأمر ولو للحظات قليلة ؟

« ان التاريخ ليعتصرنا بقسوة بالغـــة يا « بابوستوس » • انه يقبض علينا بيديه الفولاذيتين منذ قدومنا الى الحياة • ولا فرق حين يكون الميلاد هنا أو هناك ، فى هذا الزمان أو ذاك ، بين هؤلاء أو هؤلاء ، ورغم كل ذلك ، فالعقل قادر على فك الحصار •

واننى على يقين بأن أنفاس أخناتون وروحه الجريئة ــ وحيث يحيا حياة الخلود ــ على يقين بأنها مفعمة بهـذه الأفكار • وأنا على يقين كذلك بأن روحه تجاوزت حدود شخصيته وحدود مدينته • وأنها صارت الآن فى كل مكان ، بل وتجاوزت كذلك حدود الزمان الضيقة •

صف أيها الكاتب أرض مصر هذه • صفها كما كانت قبل

مولده أعلن الناس بهذه الامبراطورية المترامية العريقة الفتية • اذكر هذه الأرباب العديدة قبل أن تتناول « آتون » بالحديث ذلك الحياة والنور • وحتى ذلك الزمـــان يا « بوباستـــوس » كانت الأرباب في صورة البشر كما كانت تعبر عن مخاوفهم ••• »

هنا وبالقرب من الشريط الأخضر الخصيب ، ومنذ أربعة آلاف عام ، عاش الناس واستقروا • عرفوا الصوان والعظـــام التي استخدموها في الحفر والنقش ، وقاموا بصناعة الســـلال والقماش الخزف • كما صـــنعوا التماثيل والأدوات من المعدن الصلب •

ثم أتى « مينا » العظيم ليوحد شطرى مصر • الشـــمال مع الجنوب •

وكلما أكتب فترة من الوقت ، أقوم بقراءة ما سجلته بصوت مسموع ملتمسا موافقة الملكة على ما سجلته • فأنا أزيل الآن أنقاض المدينة لأمهد المكان من أجل أخناتون •

وتنهض نفرتيتي واقفة لتجوب سطح القصر تاركة اياى دون أن تلفظ كلمة ، ثم أسمعها تهبط درجات السلم بخطى رشيقة •

الأرباب ؟ ••• كانت مصدر المتاعب لى ! كنت أســـأل الأقارب عن أمرها منذ كنت صبيا • وكانت هذه التساؤلات مصدر ازعاج لهـــؤلاء الأقارب • فكانوا يكيلون لى الضرب كى أكف عن السؤال • وما كنت أملك الا أن أصيح من فرط الألم •

وكان راهب المعبد ينصحهم بقوله : « اضربوه بعنف أشد » « ان المرء لا ينصت الا الى من يضربه ؛ لأن أذن الانســـان في ظهره » •

وكانت الآلهة تتجهم احتجاجـــا على ذلك • كانت تتجمع

ومعها أنصاف الآلهة والشياطين ومعها كذلك شعائرها وأساطيرها. فكنت أخشى أن يأتى يوم تنهار فيه أبواب العالم الآخر تحت وطأة أقدامها وان تندفع ساعتها كالطوفان لتتعقب الناس ونطاردهم فى كل مكان حتى تسيطر على هذه الأرض فى النهاية وتعم أرجاءها » .

وكان يخدم هذه الأرباب كاهن ضخم وعدد كبير من صغار الكهنة والأتقياء والروحانيين . وكانت ثروات المعبد طائلة تفوق الخيال .

ومع ذلك كان الشعب يشعر بالسعادة والهناء أيام الأعياد والاحتفالات التى كانت تقام فى شرف الآلهية . فكانوا ينعمون بالمأكل والمشرب لأيام عديدة . هذا وقد تفجرت ثورات عديدة على مر العصور لكن رجال الدين سرعان ما قضوا عليها .

ولكن عن أى من هذه المعبودات أتحدث ؟

سوف اتحدث عن آمون القوى الصلب . ذلك الاله الذى يضيفون الى اسمه اسم « رع » ومعناها « اله الشمس » . سأذكر « نوت » المرأة السماوية التى تثبت قدميها فى الأرض فيطول جسدها ليرتفع الى عنان السماء . ويلمس وجهها وشعرها سطح الارض . أحيبى « ايزيس » التى تبحث عن جسد زوجها المتفسخ « أوزوريس » .

ولن أتوانى عن الحديث فى أمر الثورين والعقابين كآلهة . كما أنى سأذكر التمساح « سوبك » والقطة « باستيت » . لكنى سوف أتوقف لحظة من أجل « خنوم » ذلك الكبش الفخارى الذى تمثل فى البيضة التى سينبعث منها العالم من جديد . وسوف اتجاهل اللبؤة « سمخت » وفرس النهر « تورس » والصقر « حورس » . ولكنى لن أغفل ذكر « توت » الحكيم ورئيس الكتبة

« أبيس » ذلك الذى يحظى باجلال والدى وتعظيمه .. لقد دق قلبى لتذكر « هاتور » التى لا أنسى طفولتى فى أحضانها والتى كانت تجفف دموعى فى ردائها والتى أرضعتنى كذلك من ثديها .

وذاك « بس » الاله الأصغر صاحب الساقين القويتين . انى أفضله ! أتحدث اليه ولا أشعر من ناحيته بالترفع والاستعلاء . لذا تظل صورته بجوارى .

وبعد محاولتين أو ثلاث يظهر « أتون » فى الأفق . يظهر بلا وجه وأسائل نفسى عنه . أهذا اله ؟ ألا يمكن أن يكون من فصيلتنا نحن البشر ؟ ألا يمكن أن يكون واحدا منا أكثر اكتمالا وغموضا ؟ ولسوف يظهر على هيئة قرص الشمس .

التهم الغروب كل ضوء على ورقة البردى ، فصرت أميز ما أكتبه بصعوبة . وها هى « نفرتيتى » تظهر دون أن اشعر بها ، تظهر حاملة حفنة من الطين مستديرة وبها شعلة مضيئة تتناقص بالتدريج .

ــ انتهى حديثى عن الأرباب ...

ولا تعيرنى الملكة أذنا صاغية . أنهض . أتقدم نحو الضوء الخافت . أحاول أن أسمعها النص بصوت عال . لكنها لا تبدى استجابة لذلك . وتشير برأسها رافضة .

ــ وغدا سأتحدث عن الملوك ...

منذ أن أبيدت مدينتنا لم نعد نملك شيئا على الاطلاق . لم نعد نعرف توقيت الزمان . ولم يعد هناك حتى واحدة من تلك الآنية المخروطية التى لا تعلو ذراعا واحدا ويتخللها ثقب فى اتجاه القاع ويحسب ما فيها من الماء وكذلك قطرها ، وحين ينساب ذلك الماء تكون قد انقضت اثنتا عشرة ساعة . ولكى لا نضل الطريق بالليل نتطلع الى النجوم .

أما عن السير بالنهار فانى اثق تمـــام الثقة فى الاهتـــداء بالشمس .

ظننت أنى استيقظت قبل نفرتيتى ، لكنها كانت هناك مـن قبل فى الخارج . فقد رأيتها من فتحة نافذة حجرتى ، رأيتهـــا تروى شجرة الجميز التى أظمأتها حرارة الشمس . أسرع الخطى لألحق بها وبيدى كيس ممتلىء بالطعام ذلك الذى أعددته بالأمس تسرع ساقاى لتهبط درجات السلم . وتسمع الملكة وقع أقدامى فتصيح قائلة : لا تسرع .

وكان من الأفضل أن استجيب الى طلبها ! فقد أدركت فى عجالتى انى نسيت الكيس الذى يعلق من حزام ملفوف حـــول رقبته . وكان مظهرى يعكس خبلا جعل الملكة تنفجر ضاحكة .

وها أنذا أضع الغرارة عند قدميها وأعود صاعدا درجـات السلم من جديد ، ولا أكف عن العدو رغم وصيتها بأن أبطىء الخطى ثم اعود اخيرا فى سرعة اسراب الجراد !

ها أنذا !

تسير الملكة وأسير فى أعقابها . كلانا يتقدم نحو الشـــمال بين الاطلال فى اتجاه المحاجر حيث تتناثر هياكل المبانى العـامة ودروبها المتهدمة وأسقفها المتهـــارة . هنا أتعرف عن قرب على « قصر الصيف » ؛ أتعرف على « قصر الصيف » بين أكوام الأحجار على اليسار . لا أثر فيه « لنافذة الظهور » . تلك النافذة التى كان اخناتون يظهر فيها ومعه العائلة على عامة الناس .

وكانت المدينة تنمو نموا سريعا تجاه الشمال . وكان قـد شرع فى انشاء ميادين أخرى جديدة . ولم يكن قد بقى على إتمامها سوى بعض الاسوار .

وتقف نفرتيتى أمام منزل من المنـــازل القليلة الباقيـة ٠ وتسأل نفسها قائلة : كيف استطاع هذا أن يفـلت من الدمار؟ لا صوت لشيء في الداخل ٠ ولم يكن باقيا على استكمال هـــذا المسكن الا ساكف من الحجر يوضع أعلى واجهته الرئيسية ليكتب عليه اسم صاحبه ، لقد رفع هذا الساكف حتى الدرج ٠ وها هو مسجى بين الانقاض فى وحشية ٠

وتزيح الملكة ما عليه من حصى ورمال ويظهـــر الاطار فأقرأ اسم صاحب المنزل وبعده عبارة تقول : « يقول « رع » انه سوف يعيش ! » ٠ أما أنا فلا استطيع ان اكف عن الاعتقاد بان الآلهـة تفى بالوعود !

وتستأنف « نفرتيتى » المسير فى المدينة حيث لا أحيـــاء سوانا ٠ اسير وراءها كظلها ٠ تسير وأسير فى موكب هزيل نسير متلاحمين حتى الممات ٠ وقبل ان نصل الى الشاطىء الحجرى تقف عند المسلات ٠ فأقرأ هذه المرة كلمات « اخناتون » وأشدو بهـا فى نشوة تهز المشاعر :

« هذا قسم الحقيقة

أريد أن أجعل من هذه المدينة

مكانا فيه يحيا الجميع ٠

ومن الجائز أن يرتبط اسم هذا المكان باسمى ٠

لنعش ـ أنا ونفرتيتى ـ طويلا ٠

لنبلغ عمرا مديدا

بعد العديد من السنين » ٠

اقرأ هذه الكلمات والملكة مغمضة العينين . ثم تجلس مستندة الى الحافة . يغشيها الحزن حتى انى لا أحتمل النظر اليها . ورغم أننا تجاوزنا الأشجار ، لم نكن نحس بحرارة فى الجو . ففى هذا الفصل من السنة تنخفض الحرارة يوما تلو الآخر حيث تغمر الأرض مياه الفيضان .

ولن استسلم لاغراء متعة الاستحمام أو الصيد فى قارب اذ لا جدوى من ذلك طالما النهر جارف مشاغب . ولست بالقادر على تحدى قواه العاتية .

كان « مينا » فى البداية ...

ويظهر من الملكة ما يوحى باهتمامها بما أقول . اتكأت على احدى الصخور واستطردت أقول : « مينا المحاربه » مؤسس الأسرة الأولى ومؤسس العاصمة « ممفيس » يحكم البلاد طوال اثنتين وستين سنة قبل ان يقضى عليه فرس نهر كان يحاول اصطياده ...

وبعد أن أسمع الملكة ما اكتب ، كثيرا ما أضيف تعليقات عليها من عندى دون ان اعيد قراءتها على مسامعها . فقد كان هناك اتفاق ضمنى بيننا يفيد موافقتها على ما أضيف . ولقد تبددت كل المخاوف فى هذا المكان المنعزل عن العالم ، ذلك المكان العادى وصار كل منا يبحر فى حرية الآخر .

ويأتى بعد ذلك زمان الامبراطورية القديمة ... سوف أتحدث عن « زوسر » ملك الأسرة الثالثة . ذلك الملك الذى تتجسد فى شخصيته هذه الكلمات الثلاث : « الحياة والصحة والقوة » . وها هو الهرم المدرج يظهر فى الوجود عريض عند قاعدته ، مدبب عند قمته .

وسوف أتحدث الآن عن « امحتب » • ذلك الفيلسوف والطبيب، والمهندس • رجل الدولة الذى يجله الشعب • لقد كان فى ذهن أخناتون شىء عن هذا الحكيم ... » •

كان الملوك يحاربون على الحدود قبل أيام الأسرة الرابعة بقليل « ثم توالت الغزوات التى أتت بثمارها • تلك الغزوات التى سارت فى اتجاه الغرب • كما شيدت الأهرامات فى عصر كل من خوفو وخفرع ومنقرع • كما قام « بيبى » الاول بنشر سلطانه جهة الشرق • أما فى الشمال ، فلم تنقطع قبائل البدو الكثيرة عن الاغارة على البلاد • وكثيرا ما دحرت هذه القبائل وانهزمت لكنها لم تخضع لسلطان الفرعون •

وأحيى من الأسرة التاسعة الملك « خيتى الثالث » لموقفه الفريد الذى لم نر مثله فى تاريخ الملوك • اذ بعد أن أغار على مدينته « تينيس » أحد الملوك وقام بهدمها ، اعترف « خيتى » علانية بعدم عدالة قضيته قائلا : « لقد اكتشفت حقيقة الخطأ الذى ارتكبته ، ولا يمكن ادانة الأعداء لأنهم على طريق الحق وأنا المذنب الحقيقى » •

وبعد ذلك بمائة عام قامت احدى الثورات وطرد الملك وحدث تنازع على السلطة • وحينئذ دفن الفقراء ملاك الأراضى وصار من لم يجد قوت يومه ، يملك صومعة للغلال • وأصبح من كان يتحلى بالثياب المذهبة ، يرتدى الرث والردىء • لكن عدالة الثورة تنحرف عن المسار • ويأمر الحكام بالتقتيل بلا جريرة • أليست هناك ثورة بدون دماء أو ضحايا تدنس وجوه المنتصرين ؟ • »

سوف أبدأ الكلام عن الامبراطورية الوسطى عندما ينتصف النهار ، عندما تكون الشمس فى كبد السماء • ولأنى صديق وفى لمعدتى ، فقد قمت بوضع الوفير من الطعام فى كيس : اناء الخمر

والبصل الجميل والفول وبعض الخيار · وصرت أقدم منـــه الى الملكة ، فصارت تعطينى هى الأخرى حفنة من التين مع رغيف من الخبز · وبعد ذلك أعود الى الصخرة وأفرد ساقى المتعبتين ·

يقوم « سيزوسبتريس الأول » بالعمل على تثبيت عاصـــمة البلاد فى طيبة جنوب مصر · مصر التى سادها رخاء لم تشــــهد مثله من قبل فى ذلك الزمان · لقد احتلت بلاد النوبة · وأقامت علاقات وطيدة مع « فينيقية » · ووجد منقوشا على الآثار أن العمال كانوا يعملون بعزيمة لا تفتر لذا قاموا بانجاز الأعمال الضخمة · وما كان الخدم فى تلك الآونة فى حاجة الى القســـوة فى المعـاملة ليؤدوا ما عليهم من الواجبات · حتى ان أحد العمال كتب على جدران أحد المعابد : «كنت ابنا صالحا لأسلافى ··· » وهل يا ترى هناك ما يشير الى الحقيقة فى هذه الكلمات ؟ وكيف يمكن أن يعيش إنسان يومه على أرض ملتهبة فى فصل الصيف ؟

ورغم أن بعض الملـوك كـانوا يهـددون وحـــدة البـلاد ، الا أنها كانت شديدة التماسك · وقبل خمسمائة عام من هذا الوقت ساء طالع البلاد واجتــاحت أرض مصر المنبسطـة أقــوام بربرية لحـاها ســوداء · فسقطت تحت سيطـرة ملوك رعـــاة ، وكان هؤلاء القراصنة من آسيا · وقد وفدوا بأدواتهم الحربيـــة المتقدمة وعرباتهم التى تجرها الخيول ·

وجاء زمان الأسرة السابعة عشرة ، فقويت ارادة التحرير · وأسرع « أحمس » أحد ملوك الجنوب ـ مرتديـا الدرع وانقض كالعنقاء ينقض ظهر أعدائه · وهكذا رفرف علمه فوق أعلى الأبراج ·

والآن أترك المجال للذاكرة لتجود بما لديها · أقول الكلمات بايقاع منتظم متناسق · أطرقها طرقا · أسرع الخطى وراء أحمس وأتعلق فى بيرقه الذى يرفرف فى الهـــواء · فهـــل هذه خمر

مسكرة ؟ ان الدفء ليسرى فى وجنتى وأهتز مرتعشـا لنسيم الانتصار .

« ... ليظل صوتك معبرا يا « بوباستوس » ! صف لى أيها الكاتب بعد حديثك عن هذه الانتصارات الهجوم الذى وقع على تلك القلعة التى تناثرت حولها جثث القتلى . صف لى السجن الذى فيه اعتقل قادة الغزو وحكم عليهم بالقتـل . حدثنى عن كبار السن الذين جمعوا تحت ضربات الحراب كما يجمع الدجاج صف النساء اللواتى تحملن صغارهن فى جراب على الظهر . صنفهن هاربات أمام سهام تخترق الأجساد . صف الرجال الذين يحملون المشاعل فى أياديهم ؛ تميزهم النيران الحمراء .

لماذا تشتعل الحروب ؟ لماذا ؟ فلنترك اجابة هـذا السـؤال معلقة . وهل كان أخناتون من عالم آخر غير عالمنا حين كان يرفض اراقة الدماء وسفكها ؟ أم كان ينبىء بمقدم عالم جديد ؟ » .

لم يكن أبى « أمينو » مخطئا عندمـا قال : ان مهمة الكاتب مهمة يحسدها الآخرون . فأغلب الكتاب يبغضون رجال الحرب . وتثور ثائرتهم حين يرون البعض من تلاميذهم وقد بهرتهم مظاهر النصر العقيمة . وحين يرون هؤلاء البعض يمجدون العجلة الحربية ذات الخيول الأنيقة . لهذا كان هؤلاء الكتاب يوجهون الى ذلـك الشباب القليل الخبرة هذه الكلمات : « ان وجـود الجندى أمر مزعج كالكابوس . ورغم عودته منتصرا الى أرضه ، يظـل عقـله وجسمه كغابة ترعى الديدان فيها » .

وها هى امبراطوريتنا . الامبراطورية الجديدة .

عصر العظمة والرخاء يعقب عصر القلاقل . وبدون أن أفرط فى الخيال أقول متسـائلا : هل يعيد التاريخ نفسـه ؟ أم هل يا ترى يسير التاريخ وفق أحداث ميزان لا نراه ؟

وتتوالى الفتوحات المصرية من أجل صد هجمات الشعوب المجاورة وليس من أجل الرغبة فى التوسع والاحتلال · وتزداد مكانة الكاهن ويتقدم « تحتمس الأول » على رأس ثلاثة من الرماة المخازبين · كثيرون أبناؤه لكنه يفضل عليهم ابنته « حتشبسوت » ذات النظرة الصائبة والارادة الصلبة · وتظل هذه تحكم البلاد طوال اثنين وعشرين عاما · يؤازرها فى ذلك النبلاء والقائد المهندس « سنموت » ، ذلك المهندس الذى حظى برضاها · وقد تزوجت أخاها « تحتمس الثانى » وبعد وفاته ، تزوجت ابن عمها « تحتمس الثالث » ولبست اللحية وارتدت لباس الملك ·

وبعد موتها أشرقت شمس تحتمس الثالث ، فصار بعد ذلك أحد ملوك مصر العظام · ويأتى بعده « أمينوفيس الثالث » ليرث هو وزوجته - الملكة تى - امبراطورية شاسعة ثم ينجبا بعد ذلك « امينوفيس الرابع » الذى لقب فيما بعد « بأخناتون » ·

مرت أيام لم نستأنف خلالها الحديث ·

وطوال الليلة الماضية كنت اسمع الملكة تغدو وتروح · سألت نفسى قائلا : « هل تخور قواها فى هذا المكان المظلم ؟ وهل يا ترى ترغب فى رفقتى ؟ انى على استعداد ان أثب نحوها وأقفز ، لكن خطواتها ابعدتها · وأخذت أجوب حجرتى طولا وعرضا كى تشعر انى لست نائما وأنى رهن اشارة منها ··· لكنها لم تناد ·

قمت بتسجيل كل شىء على الورق كى يعود أخناتون الى الحياة ··· وتعود مدينته · سيكون الكلام مثيرا بالنسبة لى فى واقع الأمر · لكننا لا نستطيع أن نتراجع · ان وراء ما نقوله صراعا ضاعتنا. تتجلى آثاره على ملامح وجهها المشدودة · انها تبدو مترددة كما لو كانت على حافة الهاوية · وأنا على يقين أنه حينما يكون الوقت متأخرا ، تكف « نفرتيتى » عن الكلام · وأنه لكى

تفتح مدينة الأفق أبوابها لابد ان تساعدها في ذلك أشعة الفجر . ولهذا لن نبدأ الحديث عن قصة هذه المدينة الا ذات صباح . ولكن أى صباح ؟

أخشى أن يعصف الموت بنا ــ الواحد تلو الآخر ــ أو أن يعصف بنا شونيا قبل ان ننجز هذه المهمة . ولكن هل يا ترى سيكون الموت موتا طبيعيا ؟ أم سيكون موتا على يد قاتل يستأجره « خور محب » ؟ لا شيء يوحي بالحماية والأمان في هذا المكان الموحش حتى نباح الكلب ! لقد تكسرت آخر سلة ــ صيد كانت لدينا منــذ شهور . فلم يعد هناك كلب ولا سلة ! وها نحن في الحقيقة تحت رحمة أقل ضربة غادرة .

لكن من نحن بالنسبة الى الأعداء ؟ من نكون ؟ لسنا سوى ملكة متهوزة وكاتب عجوز . نفختان في مدينة صامتة . سوف يقول الأعداء حتما أننا مسالمين ، وسوف يتركوننا نموت في هدوء حسب ما أتصور .

وكيف نموت في هدوء ؟ لن نكون في سلام قبل أن نقوم بهذه المهمة ، حين نتخيل كتبة وكتبة يجلسون على حصير ، يتصفحون أوراق البردى ويقرءون بصوت يسمعه الجميع .

لقــد كان والدى « أمينو » يردد عـلى الدوام : « ان الكلام والكتابة أقوى كثيرا من الأثر التذكارى . وأن الاسم الذى يتردد على ألسنة الرجال ليشيد الأهرامات في القلوب » .

وسوف أشعر بالسعادة الغامرة حين أفرغ من تجميل الجزء الأول من هذه الأوراق انتظارا لحديث الملكة . ذلك الحديث الذى لا أدرى متى سيبدأ . وسوف أضيف وأحذف بالمداد الأحمر بعض العناوين المدونة من هذه النصوص التى كتبتها بالحبر الأسود . ان؛

ما فى حوزتى من هذه الأحبار ليتميز بالجودة الفائقـــة . وكم أوليت كتابتى من عنـــاية فائقة ، كما فعلت ذلك ، كذلك ، حين كنت أجسد العلامات على الورق .

طلع الفجر والملكة « نفرتيتى » تسير تجاه النهـر العظيم . أسير فى عقبيها . الوجه لامع أملس هادىء ، هكذا كان وجهها . سوف نبدأ اليوم قصتنا .

وقد شربنا لبن الماعز قبل أن نهم بالرحيل . حلو فى الحقيقة ذلك اللبن . كما عثرت على حديقـــة خضروات كذلك ، ولا شىء ينقصنا . وايضا عثرت على كهف من الخمور كان بين الانقاض . وهنا ينبغى ان اشير الى ان الملكة تقنع بالقليل من الطعام . وكـم تكون سعيدة حين ترانى التهم الطعام بشراهة . ان لى ثلاث طيات على بطنى أتخذ منها متكئا ليدى حينما تتعبان من الحركة .

ها نحن نهبط درجات السلم ونتجه تجاه الضفة الشرقيـة فى طريق الملك . تتسابق الكلمات وتتزاحم فى حلق الملكة بعـد صمت طويل . نبحث عن مكان للجلوس كى نبدأ الحديث مـن جديد . انها حارسة المدينة الخربة الحزينة . تسير وتسير وتنظر وراءها لتطمئن آنى وراءها أسير .

نسير بمحاذاة قصر السرور المطل على بحيرة ذات شـــاطىء يتدرج بانحدار . القاع جاف والحديقة جـــافة كذلك . فى تلك الحديقة ، كانت العائلة الملكية تتنزه بين عامة النـاس . لقـــد داستها الاقدام . اشجارها منكسة ! الاشجار منكسة ! وقد بقيت بعض رسوم زهرة اللوتس على حواف حوض الاستحمام . وكذلك نبات ورد النيل . وعلى قارعة الطريق تتراكم هياكل ســـلالات الكلاب الملكية . هناك كشك ظليل ، تشير اليه الملـــكة ، كما لو

كانت قد جاءت لاكتشافه : تقول فى دهشة : كيف استطاع ذلك البناء الخشبى الهش أن يظل قائما وسط الأطلال ؟ انه رمز للتحدى فى النهاية .

وتتجه نفرتيتى الى النهر . ويطيب لها الجلوس على الشاطىء تحت الشجرة . شجرة صفصاف تتدلى فروعها لتنغمس اطرافها فى المياه . اجلس بجوارها وليس معى لا القيثار ولا ضارب الطبل ومع أن الطبيعة تخذلنى على الدوام ؛ الا نها وهبتنى صوتا شجيا . وها أنذا أشدو بأغنية الماء :

« جميل أن يسير المرء حذاءالنهر

كى يكون منه قريب .

انظر . ها أنذا أنزل فى الماء

اعبر الأمواج

وحين يكون حبك هناك

يمتلىء ، قلبى قوة وشجاعة

المياه قوية قوية . والتربة كذلك فى نفس القوة .

« عرفت البحر حين كنت طفلة صغيرة ، لكن معرفتى به لم تدم طويلا . فقد بعدت طيبة عن مياهه . تلك المدينة التى فيها نشأت . لا أدرى أية ظروف قادتنى الى قضاء بضعة أيام على شاطئه . لا أنسى تلك الأيام .

كانت مربيتى « سيكى » تصطحبنى الى الشاطىء ســـــاعة الشفق . وكنت أسير الى المكان الذى عنده تموت الموجة الأخيرة .

كنت أضغط بقدمي على الأرض المبتلة وأغرس أصابعي في الرمال فيرتسم قدمي عميقا للحظات في سطح الأرض ٠

وكانت الموجة تشرب كل شيء رسمته وبسرعة ٠ فما أزال أعيد الكرة من جديد وباصرار ٠ وكان ذلك يثير ضحك المربية لفترة طويلة ٠ وكان عنادى هذا فاترا شاحبا اذا ما قورن بطغيان المياه الكاسح ٠ وكنت رغم ذلك أتوسل اليها كيما تشترك معى فى المحاولة ولو لفترة قصيرة ٠ وكانت آثار يدى وأصابعى فى الرمال مبعث غبطة وسعادة لا يمكن تخيلها ، فكان يسكن فى داخلى اقتناع غريب ، بأن انتصار البحر الجارف ليس الا أمرا ظاهرا ! وأن تأثير الانسان فى مياه البحر مهما كان هشا زائلا يخلد ويخلد الى ما لا النهاية ٠

عرفت منذ زمن بعيد « أن المستحيل هو التحدى الوحيد الجدير بعظمة الانسان » ٠ وكنت أتوسل الى مربيتى « سيكى » أن تفعل مثلما أفعل لكنها لم تكن تستسلم لمثل هذه الألعاب ٠ وكانت تردد قائلة : « كونى عاقلة ، انهم فى انتظارنا » ٠

كان القصر القديم ينتظرنا ٠ وكان عليه أن ينتظر ! والمربية « سيكى » تجذبنى من يدى فأقاومها ٠ كانت بدينة فى رداء مشدود ، مثبت بحمالات عريضة ٠ وكانت تزوم ويحمر وجهها حينما اقاوم رغبتها فى المسير ٠ وكنت أدير وجهى نحو مياه البحر ولا ألبث حتى استسلم فى النهاية ٠ والبحر يجلب كل شيء الى باطنه ويعود الى الشاطىء من جديد ٠٠

وكانت المربية تسألنى أن انظر امامى لأرى موطىء قدمى ٠ ولم أكن اسمع ما تقول ٠ كان الأفق يشد ناظرى ٠ كانت تنصحنى أن استمتع برؤية الحدائق القريبة والقصر وأن أداوم السير معها

فأرفض قائلة : « البحر وحده ماثل أمامي الآن ، والبحر وحده ! » .

وقبل ان ندخل القصر ، تسير « سيكي » في أحد الممرات وهي تنادي ان تعالى ! تلفني في ردائها وتمسح الرمال من فوق ساقي وهي تربت ربتات خفيفة . وكانت تحك قدمي وهي تباعد بين أصابعي . وتلبسني النعل وخدي مستند الى خدها . ثم تضحك وأنفاسها تداعب أذني . وكنت بدوري أضحك أنا الأخرى . وبعد ذلك سارت في انحاء الحديقة بخطى وئيدة وهي تحملني على ظهرها في ممرات تحف بها الأزهار .

ماتت أمي بعد مولدي بقليل . كانت قريبة للملكة « تي » . لذا قامت هذه برعايتي بعد موتها . فقد تربيت في قصر الملك « أمينوفيس الثالث » «بطيبة » بين بناتهم الكثيرات ومع ولدهم الوحيد . ولم تفارقني « سيكي » طوال طفولتي . كانت سمراء الوجه ،مشرقة البشرة . وكانت كثيرا ما تؤكد على مسامعي :

« انه من الأفضل للمرأة ان تكون نظيفة خير لها من أن تكون جميلة ! » . كانت مكتنزة بسمينة ، طيبة الرائحة . وكنت اروح وأجيء على بطنها وصدرها كما لو كنت أتنقل بين أرجاء محجر للفخار أو الخزف . ولم أر شعرها من قبل .

وذات يوم رأيتها قبل أن تمشطه فوجدته أشيب . ورأيت عينيها ذابلتين ورموشها متساقطة . ووجدت التجاعيد تحاصر فمها . كما أدركت ان رقبتها اكثر نحافة بالقياس الى حجم جسمها المكتنز . تأملتها في دهشة . لقد بلغت مائة عام في وقت قصير ! وبدت عليها علامات الشيخوخة بلا مقدمات . وبدأت في الحال أنها وأوشك ان افتقد قواي ! سأفتقد واحتي وملاذي ؛ فكنت أرتعد باكية دون أن تفهم معنى لذلك .

ولم يغير هذا المشيب من مشاعرى نحوها • فكنت اتظاهر باللجوء اليها طلبا للحماية والعطف • وكانت هى فى ذلك الحين فى مسيس الحاجة الى الحنان والرعاية • فعزمت على أن اكون حصنها المنيع حماية من مخاطر العجز والشيخوخة وأن أوقر مرضها وسنها وموتها ••

توفيت والدتى « ستيامون » عندما بلغت الثالثة عشرة • ومات والدى بعدها بقليل كذلك رغم أنه كان يكبرها بسنين عديدة • وكانت ستيامون أميرة ملكية الا أنها لم تلعب أى دور فى البلاط لأن الملكة « تى » كانت توارى الى الظل كل من حولها من النساء لفرط جمالها الفتان وشبابها الأخاذ •

وكانت سيكى تحدثنى عن والدتى « ستيامون » حيث قامت بتربيتها فى حجرها • وكذلك كانت الملكة « تى » تحدثنى عنها كانت الأختين متشابهتين فى كثير : العينين الغائرتين ، الوجنتين البارزتين ، لون البشرة • وربما كانت الواحدة تشبه أختها تماما وحتى خضرة العين كانت واحدة •

وحسب مكنون ذاكرتى ، تظل دائما والدتى « ستيامون » فى الثالثة عشرة من عمرها ، بينما يساير عمرى مسيرة الزمان ! ولما كان الزمان لا يغير شيئا فى الذين لم يلتقوا الا فترة قصيرة وكذلك لا ينقص من هؤلاء شيئا • فقد ظلت والدتى « ستيامون » فى اعماق ذاتى وبين جوانحى •

وغالبا ما أتنزه فى صحبتها وهى تمسك بطفلة ليست سواى وتقول لها حينئذ مربيتى : « انها ثقيلة على ذراعك « يا ستيامون » اعطنى نفرتيتى : اعطنيها • وتتركنى أمى لها • أزيح أستار الزمان واتعرف على ذاتى من خلال هذه الطفلة التى أحملها فى داخلى • واراني فى نفس الوقت بجوار أمى سائرة !

وتارة أصير والدة لأمى « ستيامون » • أضمها الى صدرى بحرارة فتتعلق بعنقى • واهدىء من روعها من جراء امر لا اعرف كنهه • أو اسيبها لأى شىء • لحياتها التى انطفأت قبل الأوان ، لهذه الليالى التى عاشتها مع والدى العجوز ••

ستيامون يا ابنتى ! أخرجها من صمتها العميق وشرودها الذى أغرقها • آخذ يدها فى يدى • تعالى يا ستيامون •

وفجأة نصير أختين فى عمر واحد • نجوب الحدائق • أجلس أنا وأمى الشابة الغضة فى أحد الأكشاك • انهـــا مكتنزة تزخر بالحيوية • ليتنى أراها تضحك : تعالى نجرى ! هلم نجرى نحــو النهر • ها أنذا أقطف ثمرة • أرجمها بحجر • تعالى نقتســـمها يا ستيامون ! تعالى يا أمى • يا بنيتى !

تعالى نجلس على الشاطىء ، ندلى بأرجلنا فى الماء • نبربط بأقدامنا فيه فتصنع الأمواج ، وتعلو الأمواج فتبتعد الأسماك •

تضحكين يا « ستيامون » أيتها الجميلة • أخيرا تضحكين ! » •

تعتصر « نفرتيتى » الى درجة الهلاك ، تطلب منى أن أعلن عن ميلاد « اخناتون » • أطوى ورق البردى لأترك فراغا وأغير القلم ثم أكتب •• لم تنجب الملكة « تى » الا بناتا كثيرات وطفلا واحدا من الملك « امينوفيس الثـــالث » • لهذا كانت ثائرة وقلقة على الدوام • وقد أنجبت هذا الطفل بعد دعاء طويل مستمر • وقد ولد هذا الصغير فى العـــام الخامس والعشرين من حكم الفرعون « أمينوفيس الثالث » • وبعدها وضع فى حماية الاله « آمون » وسمى باسم والده « آمينوفيس » •

وكانت ولادته فى طيبة ، بلد الشمس الساطعة والهـــواء

العليل والليل المرصع بالنجوم • ومنذ ذلك الحين ، دأب البلاط على اقامة الأفراح التى تميزت بمظاهر البذخ والسخاء •

وقد انزعج كاهن « آمون » عند ولادة ذلك الفرعون الصغير • وكانت أمه الملكة تثور أحيانا بسبب هيمنة الكهنة على شئون الحكم • وكان وراء هذه الهيمنة ولع الملك « أمينوفيس الثالث » برحلات الصيد وتعدد حملاتـه الحربية • لهـــذا كان عاجزا عن الحد من سلطانهم •

« ••• حينما وضعت الملكة « تى » صـــغيرها « أمينوفيس الرابع » كنت قد بلغت عامي الأول •-وفور مولده ، قررت الملكة « تى » أن أكون زوجة لابنهـــا الوحيد ، لأن زواج الأقارب أمر يحبه المصريون • وكان هذا الوريث مبعثا للمزيد من الاحتفالات فأضاءت المشاعل أركان القصر ، وأطالت فيه النهار • وأبحـــر المركب الشراعى لوقت طويل فى هدوء على صفحة ماء النيل قبل أن يعود • وترددت أصداء الأناشيد والأغانى فى جميع الأرجاء :

« فلتعش لنا أياما بلا نهاية يا أمينوفيس ! »

وقد وصفت لى بنات الملكة هذه الرحلة فيما بعد بسنوات • قلن انى كنت بينهن • كن يتبادلننى من ذراع الى ذراع • وقيل ان احداهن غفلت عنى ذات مرة وتركتنى فى مهدى على الأرض بين الحشائش • وانى انتزعت بيدى الصـــغيرة حفنة من الحشيش كدت أضعها فى فمى •

وتؤكد « سيكى » أنى كنت سأموت حتفا بسبب ذلـك فى تلك الليلة وأنهـــا أنقذتنى من الموت • موت يقابله ميلاد حيـــاة ! الأحزان مع الأفراح • ان هذه الصـــور تبرز تكاملا يشـــد انتباهى •

لقد ولد أحد الملوك : المجد والثروة وطيبة العظيمة والأجداد وكبار القوم والشعب ، كل هؤلاء جاءتهم هذه المنحة : ذاك الوليد !

وكل الشفاه على أرض مصر تردد اسم الوليد • وأمام مهده ينحني الجميع •• ينحنون أمام من تجرى في دمائه كل ذرات الكون • كل حنانه ، وكل غضبه • وكل فرحه ومظاهر حزنه • لقد ولد الملك الذى يستحق أن يكون فى عداد الرجال • »

ومنذ أن وضعت الملكة « تى » الأمير « أمينوفيس الرابع » لم يلبث أن ازداد تأثيرها وحظيت بلقب « الأم الملكية » علاوة على اسمها الأول « الزوجة الملكية » • وساد السلام أرجاء البلاط الذى تربى الأمير فيه • فآخر معركة قادها الفرعون « أمينوفيس الثالث » كانت الى بلاد النوبة • وقد مضى عليها زمان طويل • وصارت الحرب نسيا منسيا ، وذلك لو استثنينا بعض الشهود الذين يصفون بعض الحملات التى قام بها الفرعون الى آسيا ويحلمون بماض كله خرافة كل أوغل فى أعماق السنين •

عاش أخناتون وسط الحريم حيث أمه وأخوته • ولم يتول تعليمه أى من رجال الحرب • كنت تقريبا فى الثانية عشرة عندما رأيته أول مرة ، وكان هو يومئذ فى السابعة • رأيته فى استقبال رسمى •

فى ذلك اليوم ، كان والدى « أمينو » مكلفا بتسجيل الهبات التى قدم بها السفراء من الخارج • وكان قد صحبنى معه الى القصر لكى أساعده فى هذه المهمة • فكنت أمد له زجاجة المداد وأقص له الأقلام وأعدها من أجل الكتابة •

كان حفل الاستقبال قد اكتمل بهاؤه ، وفاقت فخامته كل

وصف وسوف يتطلب وصف هذا الحفل أن أفرغ عدة زجاجات من المداد الذهبى على الورق كى أجيد هذا العمل ·

كان هناك مهرجان كبير من الألوان الزاهية · ولمحت الصغير فى يد أمه الملكة وسط ضربات الطبول وفى رعاية حاملى المظلات· كانت نظرته ذابلة · ويومها طلبت من والدى « أمينو » أن يحملنى على كتفيه لأتمكن من رؤيته بين الجمع المحتشد ·

وكان الكل فى حلل فاخرة : عازفو الموسيقى والراقصات وكبار الكهنة والنبلاء · وكانت نعالهم ذات سيور رقيقة ، وكانت النسوة تتحلى بالعقود والأساور ودبابيس الشعر ·

وكطائر رقيق تائه فى سماء قائظة ، يتقدم الأمير الصغير عارى القدمين مرتديا وزرة متموجة من التيل ؛ وجسمه النحيل يلفت الأنظار ·

وقد حكى لى والدى أن ضعف بنيته كان مثارا لقلق والديه · وأن نوبات ارتعاشة كانت تنتابه من أخمص القدم الى منبت الشعر فيرتمى على الأرض · ويضيف قائلا : ألم تر طول رأسه ؟ لقد كان البعض يظن أنه سيموت قبل أن يبلغ الحلم ·

وطوال النهار لم نغادر ــ أنا والملكة ــ الحجرة الفسيحة المطلة على الشرفة : لقد هبت ريح عاتية وراحت ترتطم بالجدران وهنا تعلو الكآبة وجهها · وتروح وتجيىء مثل الذئبة التى استشعرت قدوم الموت ، وتكبح عواءها بالرغم من ذلك ·

وهنا أصيح قائلا : لم يمت أخناتون بعد · انه دائم الحياة ! فتحملق كما لو لم تكن قد سمعت شيئا لأن رغبتها فى أن تحمل الملك ومدينته فوق أعناق الزمان كانت تسيطر على كيانها · وأحيانا كانت هذه الرغبة تصيبها بالشلل ·

وأضيف قائلا : « ان مدينة الأفق ستظل خالدة لن تموت . انها ستحيا فى أماكن أخرى وأزمنة أخرى » . تتركنى دون أن تنطق كلمة واحدة . تخرج الى الشرفة التى أنهكتها رياح الصحراء .

ها هى تتكىء على السور . أرقب وجهها المتجه نحو الشاطىء الصخرى . ترى هل تحب أن تملأ عينيها وأنفها وفمها بالرمال لتحيلها فى النهاية الى الصمت الأبدى ؟ فالرياح تدخل فى ثنايا ملابسها حتى أكسبتها اللون الأصهب ؛ كما طلى الغبار الأصفر وجهها ويديها وذراعيها .

اقترب منها بخطى غير مسموعة . اجلس فى ركن الشرفة محترما صمتها . تغرقنى كآبتها وتغمرنى . أحاول ان أحمى الصحيفة من السحابة الصفراء وان أمنع صرير ريشتى على حبيبات الرمال التى تعترض مسارها حين أكتب .

وفجأة تنهض الملكة . تقوم كمن أراد أن يواجه الصحراء ويفتح صدره لها . لكن أعماقها لا تعرف الملل ، ورغم هذا فذاتها تهوى ونفسها تتمزق ! شاحبة صفراء . أقول وكأنى لا أقول ؛ أقول ولا مجيب :

« غدا سيكون غير اليوم . غدا سيتغير عن اليوم ! » .

وفى خضم هذا اليأس الذى يغرق الانسان بين الفينة والغينة ، فى وسط هذه الاعتمالات النفسية التى تبددها احدى الكلمات أو أحد الأحداث البسيطة ، تعلمت الا أنام ، ان أتحمل الآلام أن أصبر وأنتظر .

ــ غدا سيكون شيئا آخر ! لقد أثرت كل كلماتى فى أعماق ذاتى .

وكاحدى شباك الصيد الملفوفة آخر النهار أرى نفرتيتى معتصرة . أقول في نفسي : « ان اخناتون وحده هو الذى فى وسعه أن ينقذها مما هى فيه حين يتجه نحوها فاتحا ذراعيه .

وأخيرا نجتاز تلك الليلة بعد عظيم عناء !

استعادت الصحراء رمالها حين هدأت الرياح كما احتضنت كذلك الأحجار . كنا فى حاجة الى الخروج لنستمتع برقة الهواء تحت شمس السماء الصافية . وأتوجه اليها . أقدم لها احدى ثمار الرمان المليئة بالحب الوردى ذى العصارة الحامضة .

وكان هذا كافيا لاستعادة ذكرى ماض مشرق بالضحكات كى تظهر نفرتيتى فى النهاية وهى تهبط درجات السلم العريضة فى رفقة « رويا » و « ميرينا » وأخريات .

أهبط درجات السلم عدوا . ووراءنا « سيكى » فى يدها سلة ضخمة بها ثمرات رمان كتلك التى أعطيتنيها يا « بوباستوس » نمتص حبها القرمزى فى فترات الراحة وبين الألعاب . نعرف بعض اللعبات !

نتقاذف الثمار والحصى بطريقة بهلوانية فى الهواء . نلعب كما تلعب النساء . نقف ظهرا لظهر ونمد الأذرع كل من ناحيته . نضرب بالأيدى بينما تسند رفيقتان أخريتان أقدامهن الى أقدامنا وأياديهن فى أيدينا والأجسام مشدودة العضلات .

وتأمرنا « سيكى » أن ندور ونلف كما تدور العجلة حتى ندوخ ونسقط وسط الضحكات العالية . القطة « تامى » تتعلق فى أرجلنا . والكلب « نب » ينام بعين واحدة . والقرود تتسلق الأشجار وتنزل وتضع ثمار البلح فى أكفنا .

كيف حال قردك يا « بوباستوس » ؟ تسألنى الملكة . تسألنى

الملكة فيجيب لسانى تمتمة والرأس خفيض : « فيما بعد ‧‧ سأجيب على السؤال فيما بعد ‧‧

تستأنف الملكة قصتها كما لو كانت لم تسأل عن ذاك القرد ‧ يسكرنى الحزن لأن ثعبانى « سنب » قد اختفى ‧اختفى حينما اختطف « اخناتون » من مدينته ‧ يومها ، هرب « سنب » فى غفلة خيل الأيام الشعناء ! ‧‧‧ ورغم توالى السنين ، يعود الأمل ، وأعود لأبحث عنه بين الأطلال أملا فى أن يظهر فجأة ويقفز نحوى ، ليقترب منى بتكشيراته وقفزاته ‧ ويلف ذراعيه برفق حول رقبتى ‧

كان البستانى « شيدو » يسكن أحد الأكواخ عند طرف الحديقة ‧ وكنا فى الغالب نذهب لنراه أثناء العمل ‧ كنا نستمتع الى كلامه الكثير ‧‧‧ والفتى « أمينوفيس » يهرب من الرعاية الملكية المشوبة بالخوف ‧ كان يهرب هناك تحت كرمة فى الحديقة ‧ وكنت الوحيدة التى تلاحظ ذلك ‧ فكان يشير الى برأسه حتى لا أخبر أحدا بوجوده ‧

كان « شيدو » رجلا قصير القامة عريض الوجه ‧ وكانت مهمته العناية بالحدائق ورعايتها ‧ أما عيناى فكانتا تراقبان « أمينوفيس » وتحركاته وهو يقف ساكنا بمفرده ‧

أستأنف الحديث عن « شيدو » ذلك الذى كان ينظم الحدائق ويقوم بتنسيقها ‧ كان يقسمها الى مثلثات بينها ممرات مستقيمة : وهو الرجل الذى يجعل من الأشجار حدودا للحدائق ؛ ويرعى كثافة أشجار الكروم ويفخر بأنه زين الحديقة الملكية بثمانية عشر لونا من الأشجار ‧ وهو المسئول عن اعداد الأكشاك وتهيئتها لاستقبال الضيوف ‧ وهو الذى يزود هذه الأكشاك بالمياه الباردة يضعها فى آنية من الفخار ويغطيها بأوراق خضراء ‧ وهو الذى يحدد مساحات الماء التى يسبح فيها نبات ورد النيل ‧ وهو المشرف على القائمين

برعاية الحدائق الأخرى حين يملؤون أحواضا مستديرة حتى حافتها لتصب مياهها بعد ذلك فى الجداول ...

وعندما تسكت الملكة ، أنتهز الفرصة لأصنع اطارا لما تحدثت عنه ، فذلك أمر أستشعر ضرورته . أحاول أن أحصر الصورة فى أطر محددة وأن أكون مهندس القصة على الأقل فى النهاية . وسوف يمسح الزمان الألوان أو يزيلها . وى شىء سيبقى عنا بعد ذلك اذا غفلت عن الكثير من المظاهر وتخليت عن الجانب الجمالى ؟ .

عميقة تلك الكلمات . كلمات نفرتيتى هكذا تبدو فى كثير من الأحيان . تحيل المظاهر الى رماد فى لحظات . لتبقى فى النهاية نيران هذه الأعماق . وحينئذ أتناول النص معتمدا على ذكرياتى وذاكرتى ، فأوجه اليها المزيد من التساؤلات مركزا على ما يمس الصميم من الأمور . وأقف عند بعض التفاصيل متمهلا مقتلعا نفسى من هذه الأعماق .

« وبينما كان « شيدو » يتابع الحديث عن مغامراته ، كنت أنا أتابع « أمينوفيس » . لقد صار جبينه متجهما وعيناه براقتين . عيناه تنظران الى الأرض . فيه النقاء يسكرنى يا « بوباستوس » يجلس فى الظل وعيناى لا تفارقانه .

وفجأة يعلو صوت « شيدو » محتدا . يأخذه الحماس للانتصارات الحربية . هكذا كما تصفه لى « سيكى » . وهنا ينسحب « أمينوفيس » كالسائل الذليل .

ويحكى « شيدو » وأنا جالسة وسط صاحباتى ، يحكى مغامرات أخرى عديدة . وأمينوفيس هناك يقف فى الظل ونظراتى اليه بلا حدود . لا أريد أن أرى سواه . ان حضوره ليخفف من حماس « شيدو » ويصم آذان السامعين عن أعمال العنف ... »

كان « شيدو » الذي يعيش بين الحدائق والنبات يرى في الحشرات عدوه الأول . كان يعرف أدق أسرار الطبيعة . كان يقول ان شحم الصفراوية مفيد في علاج أمراض الذباب وان نقص السمك يسببه برغوث الماء ... » ولا يحلم الا بأمجاد المعارك !

يسيطر عليه الخوف المفرط من الفرعون الصغير ، فتكثر حركته وتضرب ذراعاه الهواء . كما تجحظ عيناه من الخوف .

ومازال الحديث مستمرا عن « شيدو » !

انه يتهم الأعداء ! ان هؤلاء قوم من أصل خسيس . يقومون بحرق المدن وقتل الطيور . فيحاصرهم في بلادهم ويأسر سكانها . يقيدهم « شيدو » بالسلاسل ويربطهم في الأوتاد . كما يكويهم بالجمر المشتعل والحديد المنصهر .

أما « أمينو » ففي دهشة من أولئك الذين لا تهز مشاعرهم فظاظة الأقوياء العتاه . فكيف يخفون غضبهم ولا يعلنون عن رأيهم ! ويرى ان بعض الناس مقتنع بأن للسادة حقا في ممارسة القمع حتى مع أنفسهم ! كما يحلم البعض ويستمرءون أن يمارسوه هم كذلك .

« وينقل الأثير عبارات « شيدو » على موجاته . وأذوب في نظرات أمينوفيس كما يذوب هو في نظراتي فتسري في عروقنا الحياة . أغلق عيني فأرى صورته . ترن كلماته في أذني . نتعانق من بعيد وأعيش هناك بجانبه في مكان قصي .

وكل ما في الحديقة من الأشجار يشهد بنجاح « شيدو » الفرعون » ويسمع هتاف الشعب وتملق الكهنة . السجناء يسبقونه والحبال في رقابهم . وقبلهم قادتهم الذين ذبحتهم الضربات القوية . صوته يرن في الآذان . ذلك الصوت النابع من حنجرة تزخر

بالأحقــاد • وتتدافع صاحباتى الواحدة تلو الأخرى • وتهتف الوديان والمدن والصحراوات بعظمة « شيدو الفرعون » •

فجأة ينهض أمينوفيس • تنتابه رعشة احساس بالبرد فتهرب منه الكلمات • وحين يلمحه « شـيدو » يرتمى على الأرض اجلالا وتوقيرا • وهنا تمتلىء عينا « أمينوفيس » بالدموع ويشير بيده الى « شيدو » كى ينهض • ثم تسرى الحياة فى نبرات صوته فيقول :

« لا ينبغى أن تقوم الحروب • فنحن فى مسيس الحاجة الى السلام على الأرض • انهض ياشيدو ولا تنحن أمام أى من الناس • لا تركع أمام أحد قط ! » •

ويبتعد أمينوفيس مزعزع الخطوات •

ينظر « شيدو » و « سيكى » كل الى الآخر وتتهامس الرفيقات • لسوف أسرع فى أثره لأعبر له عن رأيى : « انى معك يا أمينوفيس • أرى ما ترى ! معك » •

وتمسك « سيكى » بيدى وتجذبنى قائلة : « ان الموكب الملكى يراقبه ويسير فى أثره » • وأخيرا يتجمع النبلاء وكبار الكهنة حوله كما تتكالب الوحوش حول الفريسة فلا أراه » •

لا أدرى متى وأين تستأنف الملكة الحديث • لهذا سوف أبحر فى أعماق ذاتى لأتنزه فى دروبها وألهث وراء كلماتى • وسوف أجمل الكتابة لتنقل الى القرون القادمة آثار اخناتون ونفرتيتى • ويحكى كذلك عن حبهما •

فأنا شاهد على هذه الآثار وهذا الحب منذ أن تمكن والدى المجد والتحية لذكراه ـ تمكن من الحصول من أجلى على هذه الوظيفة وقد حصل عليها بفضل ما كان يربطه بالمدير « توتو » من صداقة

ومودة • وكان لخلقتي القصيرة ووظيفتي المتواضعة الفضل في الدخول خلسة عند من يصنعون أحداث التاريخ •

الحب ؟ لم أعش الحب الا مرة ! من كان لدية القدرة على محبتي ؟ من كان بمقدوره أن يرتبط بخلقتي الدميمة • تلك التي تتمثل في كيس من الشعير ذم بطريقة سيئة ! من كان يصبر على ملاطفة وجهي المدهش ؟ مرة تراه مثيرا للضحك وأخرى تراه مبتلا بالدموع • حقيقة الأمر ان هيئتي تفوق انفعالاتي ومشاعري •

ورغم ذلك لا يمكن أن نقارن الحب بأي شيء • تلك العاطفة التي تفرق وتعذب وتزيل نضارة الجسم وتذهب قواه • هذا الحب الذي لا يفوقه في القوة الا سحر المدينة التي لا تزول من الوجود • الحب أكثر حتمية وصلابة من جميع الفلسفات • أتحدث من هذا المكان كي يسمعني الناس جيدا • أتحدث عن الحب المتبادل الذي رأيته وثيقا في المهدين « نفرتيتي » و « أخناتون » ؛ عن ذاك الحب الذي أحببته فأضاء ذاتي وكياني •

لقد اختص القدر نفرتيتي بأخناتون كما خصه بها • مرة بارادة القدر ومرة بارادة الملكة « تي » التي كانت تبارك هذا الزواج وتسعى الى تحقيقه •

ورغم ذلك كان والدي « أمينو » حذرا حيال هذه الثقة المفرطة في هذا الارتباط • كانت الملكة « تي » ـ كما كان والدي ـ تعتقد بأن هذه الرغبة وثيقة الصلة بالعوامل المساعدة على قيام الامبراطورية • وكان والدي يقول في هذا الصدد : « من يستطيع ان يتنبأ بما تخبؤه الأيام القادمة لهذه الأرض الشاسعة اذا ما تغيرت الأسباب ؟ » لكني في النهاية أبارك هذه الأفكار الذكية •

وحين تتكلم نفرتيتي عن شبابها يتغير لون بشرتها • تحسبها

وكأنها خرجت لتوها من النهر منتعشة • تسير كما كانت تسير أيام الشباب • تبدو وفخذاها أكثر نضارة وحيوية • وتسير بخطى نشطة واسعة كما لو كانت ستطير من فوق الأرض •••

انى مسرعة يا بوباستوس ! اجرى نحو « أمينوفيس » وليس فى مقدور أى شىء أن يمنعنى • سوف أطير فى كل الأرجاء • بين أشجار الحديقة ، وفى كل زوايا القصر • سوف أطير نحوه • واليه •

لكن كبار كهنة « آمون » الذين عهد اليهم تربية « أمينوفيس » يلتفون حوله • وغالبا ما لا أجد مكانا أنفذ منه اليه • لقد عرفت فى الأمير تلميذا مجتهدا • عرفت انه متعطش للمعرفة الى درجة كبيرة •

كان الصبير يواسينى • كان هو أملى لأنى عرفت من الملكة « تى » أنى سأصبح زوجة له • فعبرت لها عن موافقتى حين أومأت برأسى كى أخفى خجلى • ذلك الخجل الذى تجلى فى حمرة وجهى ، وحتى لا تنكشف دقات قلبى • وكان يمكن ان تسبب هذه المشاعر الواضحة قلقا لدى الملكة « تى » تلك الشخصية القوية الطاغية التى كان بمقدورها السيطرة على الآخرين مثلما تسيطر على أعصابها •

وذات يوم وجدتنى فى مدرسة القصر • كانت هذه المدرسة مربعة بها عشرون بنتا من بنات العائلة الفرعونية وكذلك بنات الوزير • ولما كانت لا تغلق أبوابها ، لهذا وجدت نفسى ذات مرة أمام أحد أبوابها المفتوحة •

كان المدرس يجلس أمامنا على حصير • كان طاعنا فى السن ضعيف البصر • ينحنى على الكتابة ليميز ما يقرأه • ولم يكن آسفا على شىء • فكان ضعف بصره أمرا غير ذى بال بالنسبة له اذا ما قورن ذلك بما عاد عليه من القراءة والكتابة • وكان يتطلع الى أن نوليه مزيدا من الاهتمام وان نشاركه اعجابه بنفسه • وكثيرا ما كان

يقول : « لا شيء يفضل الكتاب • يفنى الانسان ويواريه التراب • وبينما نرى الكتاب أكثر فضلا وخلودا حتى من قصر مشيد حسن البناء » •

كان سيدنا يعرف الحساب والنجوم وقواعد اللغة والجغرافيا ، وتاريخ الديانات • وكان كثيرا ما يردد « ليست الكتابة من أجل الحفر على المسلات المقامة من الحديد ولا من أجل الأهرامات القوية ، لأن بعضها تقوم الرمال بتغطيته شيئا فشيئا • كما ان البعض منها يحتوى على حجرات ينساها الناس • أما حينما تكون الكتابة جميلة ، فانها تظل واضحة سهلة القراءة على الدوام » •

وغالبا ما كان المدرس يعطينا دروسا لنحفظها عن ظهر قلب • وكنا نقوم بترديدها على مسامعه • فلم يكن يشاركنا فى تلك الصالة الا تلك الكلمات وقائلها •

أستشعر أحدا يرقبنى لذا أدير الوجه نحو الحديقة • انه أمينوفيس هناك فى الحديقة • هناك قرب الشجرة فى انتظارى • لا أجرؤ على السير تجاهه • وتأتى « ميرينيه » كذلك فتراه • تضربنى بكوعها وتضحك وهى تضع كفيها على وجهها •

يسألنى المدرس أن أسمعه احدى القصائد • ولكى يسهل مهمتى ترك لى حرية اختيارها • أنهض واقفة تجاه الباب المفتوح المطل على الحديقة • هناك نحو الشجرة ، نحو أمينوفيس واليه • اليه وحده أوجه الحديث •

« يا صديقى
معك أدخل أى مكان
فى صحبتك أخرج من أى مكان
قوى قلبك

وحبك يجعلنى مثله قوية

هيا انظر الى »

أترك مقعدى • يجذبنى حضـوره • اجتاز عتبـة الباب ولا يمنعنى المعلم من الخروج • أسير نحو « أمينوفيس » عملاق هو رغم نحافة جسمه المفرطة • أحملق فى وجهه الذى لا يروق للرفيقات • اقترب منه • الشفاة غليظة والعين ناعسة والذقن طولها زائد عن الحد • وأمد اليه يدى •

لن يفرقنا أحد ! لا الكهنة ولا الرفيقات ولا حتى « سيكى » ! سنذهب تحت الأشجار السن متحدة : ستة عشر عاما • وتلتقى يده بيدى • فتسرى فينا الحرارة • ها هى يده المحمومة تنتعش • لا يهمس بكلمة ولا يسرف فى الكلام •

يتلاقى جسدانا • تنتابنـا نفس الرعشة • وتربطنـا طوال الدهر جذور فى الأرض عميقة ، وقريبا يعلن حبنا يوم مشهود •

ومرات أخرى يحدثنى وأحدثه • أصف له مدرسى ويصف لى مدرسه • وسوف يأتى اليوم الذى يعرف فيه كل الناس ــ كل الناس ــ فن الكتابة لم أفهم هذا • كنت ما أفهمه العمل والزمان وفقط • كنت أعرف ان التعليم كائن موجود •

أذكر انهم كانوا يعطوننا ألواحا من الفخار لنكتب عليها ، بدلا من الورق • وكنت أقول ان معلمنا دقيق وهو يعطينا الورقة البيضاء • أصف له اهتمام معلمى الفائق بمساعدة كل تلميذة حين تطوى الورقة على ركبتيها • وطريقته الدقيقة حين يغمس قلم البوص فى المداد الأسود قبل أن يعطينا ذاك القلم • أصف له كيف ان كل واحدة منا تلتقط أنفاسها حين تشهد ميلاد المكتوب على الورق •

كم من المدرسين يلزمون لنشر هذا الفن ؟ وأى عدد من المدارس ؟

ويستوقفني أمينوفيس قائلا : « ان اعداد المدارس والمدرسين أمر حتمي • وسوف نقوم بما يلزم •

وهكذا يظهر الملك الصغير حماسا يجعلني أدرك أن الكلمات قد تتسابق متدافعة في فمه • وفجأة يصفر لونه• فيضغط على ما بيده •

كنت أعلم أنه يرتمي على الأرض أثر نوبات ارتعاشة تصيبه لكنني لم أشاهده من قبل في تلك الحال • وكان البعض يرى فيه رجولة منقوصة • والبعض الآخر يرى في حالته تلك صفة من صفات الألوهية • ولم يكن أي تفسير من هذين يروق لي • وما كان يشغلني هو أن أشاركه همومه •

تلك الهموم التي كانت تنفخ قسمات وجهه وتمسح فكه الفاغر باللعاب ؛ فكان يصبح من أعماقه : هيا اذهبي لا تنظري ؟

ومع ذلك فلم يكن هذا مبعثا لنفوري منه • كنت أحب كل خلية في جسده المعصور • ذلك الجسد الذي تفترسه النكبات • وهكذا كان يظل حتى يعبر ما يعيشه من الأزمات •

ولكن عينيه كانتا تتوسل الى راجية أن أتركه ونفسه • فكنت أبتعد عنه وكلي اشفاق عليه •

وقد هدأ أمينوفيس من روعي بعد ذلك مؤكدا لي أنه تعلم كيف يجتاز الصعاب والأزمات ، كيف يترك نفسه ويستسلم لانفعالاته الى درجة النسيان ، كيف يتملك عقله ويرتب أفكاره • لقد كان يعاني من هذه الأمور • لكنه هذه الآونة في سكون وهدوء •

وطوال الفترة الطويلة الماضية التي غاب فيها عن ناظري ، لم تفارقني أفكاره ولا كلماته • لقد بدت لي الفكرة القائلة بأن تظل الكتابة احدى مزايا الكتبة وكبار الدولة ، بدت لي فكرة غير صائبة

لأن الأمر سوف يتغير حين يتاح لجميع الناس القدرة على التعبير !
« كل الناس ... » .

كانت هذه الكلمات تمهد الطريق أمام عامة الناس . ولكن ماذا كان يرى أثوك - كبير الكتاب - يا بوباستوس ؟ .

كان والدى أمينو يعشق الملكية والتملك . وكان يستاء لعدم تطلعى الى الثروة والأمجاد . فكان يردد على مسامعى : « لن تكون موظفا مرموقا على الاطلاق . ولن تكون أبدا الرئيس لكثير من الناس . كما ولن تخرج بتاتا من صفوف العامة ! » .

حاول كثيرا أن يطلعنى على أسرار الادارة لكثير من الاعتبارات ، وحاول أن يعرفنى أصول تدريب الموظفين ، ونظم التجارة وقوانين الحرب والأمن . وكذا ما فاجأنى بهذا السؤال : « ما حجم الفصيلة بالنسبة الى جيش يتجه الى المعركة ؟ وكم من قوالب الطوب يلزم لبناء مدرج ؟ ولكى يزيد فى الدقة يقوم بتحديد أبعاد هذا المدرج . وكنت أظل صامتا فيغتاظ .

وكان يتنبأ لى بمستقبل متواضع لأن كل كاتب من الكتاب لا بد له أن يرتقى فى وظيفته وان يزاول عمله فى مجالات أخرى عديدة .

ويستسلم والدى « أمينو » فى النهاية مقتنعا بأن امكانـاتى تقف عند مجرد القيام بنسخ احدى القضايا أو كتابة قصيدة على الورق . ولا شىء غير ذلك .

وكانت موهبتى فى الرسم ترقى الى رسم زخـارف بالحبر الأخضر والأزرق والأصفر . وكانت تلك الزخرفات تروق للناظرين .

ونظرا لتواضع مهاراتى ، عهد والدى فى النهاية الى المدير « توتو » أمر تدريبى . فتكفل هذا برعايتى مستبشرا بأن قزما مثلى

سوف يجلب له الحظ : فكان يكلفنى ببعض الأعمال الكتابية - وكان يتركنى ألهو من وقت لآخر كى ألهو وألعب •

وبعد أن عرف هذا المدير أن صلتى وثيقة بالأمير « أمينوفيس » طلب منى أن أقوم بتسجيل كل شىء عنه • لأنه كان يكن للأمير كل اخلاص ومحبة •

وقد أزكت هذه المذكرات موهبة الملاحظة عندى حتى أن نصوصا كاملة تواكبت الى ذاكرتى حينما اختفت الكتابات التى سبق ان دونتها عن مأساة هدم المدينة « مدينة أخناتون » تواكبت أمام ناظرى فى النهاية •

وساعتها كان يكفينى ان أعيد تسجيل الماضى على هذه اللفافة من الورق •

ومنذ ذلك الوقت شملنى الوزير « رعمس » بعطفه ذلك الوزير الذى كان يؤمن بفرعون المستقبل أيما ايمان • وعلى العكس من ذلك ، كان رجل الدين « جاديه » لا يكف عن اضطهادى •

فلمجرد أن اعترضت طريقه أخذ يعاملنى معاملة سيئة كما تعامل « الجرة الفارغة » ، و « كالرأس بدون ذاكرة » وكان يهددنى بقرع العصى اذا رآنى أسير فى أثر الملك الصغير •

ولحسن حظى كنت ذلك المضحك الذى لا خطر منه • لهذا كان عندما يقول كلاما جارحا أو يتوعدنى ، كان سرعان ما يهدأ وينسى ما توعدنى به •

« كنا فى النهاية قد عثرنا على أحد الممرات الموصلة الى مكان منعزل نلتقى فيه بعيدا عن الأنظار • وكان علينا ان نبتعد عن أعين الفضوليين • تلك العيون التى كانت تراقبنى لتسبر غور أعماقى

وترى فيها انطباعات نظرات أمينوفيس الذى كانت جفونه تبقى مغلقة كمن يريد ألا يفتقد الدموع الغور التى تمتلىء بها عيناه ·

كنت أراه منتظرا ساعة الغسق ، أراه جالسا فى انتظارى · كنت أراه مائل الرأس فانحنى على شفتيه المكتنزتين ، وبطرف سبابتى أتحسس فمه الهرمى · أتحسس فيه بسمة خفيفة ·

كل شىء فيك « يا أمينوفيس » حسى ومضىء · طرف شفتيك وفتحة أنفك المستديرة وأيضا نظرتك الشاردة الدامعة · ويربط بين هؤلاء جميعا نوع من الغياب والتيه ، نوع من الانتشار نحو عالم غامض مجهول بلا حدود · يشاركهم فى هذه السمات وجهك البارز الى الأمام مثل مقدم السفينة المدبب · وكذلك الذقن الدقيقة والبشرة التى يكسوها عرق خفيف ؛ ذلك العرق الذى تسير عليه أمواج رقيقة والتى بدورها تتيح الفرصة لظهور دوامات بين هذه الأمواج ·

كل شىء فى أمينوفيس له جذور ممتدة ، تمتد فيه الى الأعماق· أحس به أمامى وبجانبى فى كل لحظة · أحس به يجذبنى · يقلقنى· أحس بأن حلمه الذى بناه ثم تهدم يذيب كل حواسى · كما المس فيه بريق الحكمة والجنون المطلق كذلك ·

ان قسوة الزمان علينا أمر لا نقدر على تصوره ! وبلا مقدمات ، يحدثنى « أمينوفيس » عن الموت ، عن الآلهة ، عن العدالة والسعادة والسلام ···

لقد طارد اليوم الآخر تفكير أجدادنا على الدوام · لكن أحدا من هؤلاء لم يرجع الى الدنيا ليخبرنا كيف يحيا وأى شىء يحتاج اليه الأموات · ان الحياة الدنيا ليست الا صدى لحياتنا الدنيوية · ولكن هل توزن النفس بموازين مثل موازين الدنيا ؟ وهل يوزن الخير والشر ؟ ·

لم يكن أمينوفيس ينتظر الرد على هذه التساؤلات لأن أحدا منا لا يملك الاجابة عليها • لقد سأل هذه التساؤلات ليحرث بها أرضا شاخت حتى تنبت هذه من جديد • ولكى يشق فيها خطوطا جديدة •

الآلهة فى أيدى الكهنـــة • انهم يجعـــلون من الموت مصيدة للايقاع بالناس •

لقد وجدت فى هذه الكلمات بعض تأثيرات الملكة « تى » تلك التى لم تكن تفارق ولدها كما قالت « سيكى » •

كانت الملكة « تى » تحاول دائما أن تحرر البلاط من وصاية الكاهن « آمـون » • وكان « أمينوفيس الثالث » يثور لتســـلط الكهنة الزائد ، لكنه لم يتخذ فيهم قرارا وذلك لانشـغاله بهواية الصيد • وكان غيابه الزائد سببا فى احساس كبار رجال الدين بأهميتهم ، فزاد تأثيرهم فى الحكام الى درجة كبيرة •

ورغم مزاج الملكة المتميز بالانفعال ، الا أنها لم تتخذ بشأنهم قرارا لأنها لا تتعدى صفتها كامرأة • ولم يكن وحيـــدها ملك المستقبل ، غير صبى عليل يتهدده الموت • وكان هذا الفتى كثيرا ما يردد :

« ان امبراطورية الأموات لا تكفيهم • يتطلعون ويطمعون فى امبراطورية الأحياء أيضا • ان كبار الكهنة يمتلكون أراضى لا حصر لها • انهم يمتلكون الماشية بالآلاف • ولديهم من الفلاحين والعمال الجموع الغفيرة • ان لهم حراســا يدافعون عن مصـــالحهم ونظارا يديرون شئون حقولهم • مخازنهم بالحبوب مملوءة ومحلات معبــد الكرنك بالمحاصيل مكتظة •

لقد شيدوا المعابد التى يعرضون فيها الفائض من الانتاج • وأغنتهم الغزوات التى قام بها الفراعنة كما استولوا على مدخرات الناس • لهذا قاموا بتشييد المعابد الحديثة والحصـــون المقدسة • ونحتوا المسلات المغطاة برقائق من الذهب • والناس يدينون لهم بالولاء والخضوع الأعمى خشية الآلهة والموت •

ويستمر « أمينوفيس »قائلا :

أمرت الملكة « تى » باقامة معبدين فى احـدى حجرات القصر وذلك من أجل اله الشمس « آمون » • وسوف أصحبك الى هناك ذات يوم •

وفجأة ظهر أن أحدا وراء أوراق أكاليل الزهور ، يقف يتسمع ما نقول • انها على ما يبدو الملكة « تى » رأيتها من ردائها وتصفيفة شعرها ، لكنى رغم ذلك لست على يقين من ذلك •

ويتابع أمينوفيس حديثه :

« سأقوم ببناء معبـد فى الكرنك من أجـل الاله « آتون » وسوف أقدمه اليه بدون وجه • سيكون على شـــكل قرص من الذهب : علامة سوف يستطيع كل من على وجه الأرض أن يتعرف عليها • وسوف تنتهى أشعتها بأيد تهب الحياة للخلائق • أياد تحمى وتحنو •

ويعطينى أمينـــوفيس ورقة من البردى بها بعض الرموز • أعطانيها وهو يقول : « احتفظى بهذه • انها بداية نشيد الشمس • وسوف أكمله بعد فترة :

الشمس حية من قديم الزمان •••

والله وحده خالق الكائنـــات •••

الطريق مفتــوح لأنك هنـــاك ...

من فى الدنيا رأى الها له وجه انسان أو رأس حيوان ؟ لكن كل انسان رأى الشمس ويراها وسوف يراها . الشـمس تهب الحياة وتسكن أعماقنا وتتحدى الموت . تشرق للجميع . للجميع . ويخيم المساء فأطوى ورقة البردى وأبتعد .

ــ الطريق مفتوح طالما أنت هناك !

ولعدة مرات ، كنت أنا الذى أنتظر أمينوفيس . كان قلبى يركض حينما أراه . تغزونى رعشة سعادة . ولم أفتأ أستعيد هذه الرعشة طوال السنين من أجل أن أســتعيد معايشة هذه المشاعر من جديد . وحين أسترجع الماضى أطير نحو ذراعيه التى يفتحها ليضمنى الى صدره ، فأضع رأسى على كتفيه بنفس الشوق واللهفة .

وكانت هذه المقابلات المتعددة لا تعجب المربية « سيكى » ، فكانت تقول ان الملكة « تى » تحبنى دون شك ولكنها لا ترضى عن هذه اللقاءات الطويلة المتعاقبة .

وكان شبابنا الملتهب ، واشتياق كل منا للآخر كذلك مبعثا لاطمئنان الملكة . ومع ذلك كانت تسعى الى أن تكون الوحيدة التى تشارك ولدها أفكاره ؛ وتتعرف على مقاصده ونواياه .

كان أمينوفيس يتحرق شوقا الى لقاء شعب مصر الذى لم يكن يقرب القصر الملكى الذى كان يحجب الفرعون عن الشعب . أنا على يقين أن أمينوفيس كان يصحبك خلال أمسيات كثيرة هناك عند أبواب القصر ويسير بين الناس فى شوارع طيبـــة . وذلك

رغم أوامر الوزير « رعمس » التى كانت تمنع ذلك بصرامة ..

فى تلك الأمسيات ، وتحت جنح الظلام ، كان أمينوفيس وأنا - بوباستوس - كاتبه الخاص ، كنا نغادر القصر ونمر بالحدائق سائرين نحو واجهته العجيبة الفخمة . كان هذا القصر رائعا كما لو شيد من الهواء والحجر بجـــوار النهر . وكانت تحيـــط به الصخور الزاهية الضـــخمة من كل جانب . وكانت روعة ألوانه الذهبية تتجلى بوضوح مع دوران الشمس .

كنا نسير بمحاذاة صفوف أبى الهول ، فى الطريق الذى يصل بين القصر والمعبد . ورويدا رويدا كنا نجتاز الأشـــجار الملكية لنصل بعد ذلك الى أشجار السنط ثم الى أشـجار تعانى العطش ونقص الغذاء . وكنا كذلك نسير بدءا من أحواض ورد النيل الضخمة الى جدول مياه زرقاء صـــافية ، الى طريق منهك لا يجد من يحتو عليه ويرعاه ؛ ومن مبان عالية شاهقة الى مبـــان أخرى ترتفع قليلا عن سطح الأرض فى شكل آنية . وكنت أسير أمام الأمير كرجل يصطحب طفلا فى حوارى المدينة . فقد كنت على دراية بدروبها الضيقة .

وكان الأمير أمينوفيس يغطى جزءا من وجهـــه حينما يكون قريبا من القصر . وحينما يبتعد عنه كان يســـير فى حرية . ولم يكن أفراد الشعب يكتشفون حقيقته . وفى قلب المدينة لم يغامر أحد بالابلاغ عنه أو يحاول التعرف عليه . وكان المدير « توتو » يعلم بخروجه ليلا للسير فى أرجاء المدينة ، لذا أعد له وزرة من القماش من نسيج متواضع . فكان هذا مناسبا له من أجل اخفاء شخصيته .

كنت أصطحب الأمير وسط العـــامة فى جميع الأماكن .

أصطحبه وسط هؤلاء الذين أنتمى اليهم • فكنت أحس أنى بين أهلى وألهو مثلهم • أضرب كل شىء بالأقدام • ولم يطب لنفسى مثل هؤلاء الناس أن أتطلع الى أى طموح • هؤلاء الذين كانوا يعانون الكثير من الحرمان • وأستمتع مثلهم كذلك بالقصص الساخرة من كبار القوم وسادتهم والتى توجه النقد الى نقائص حياتهم • ورغم أن مزاج العامة غير سام الا أنه يعجبنى فى بعض الأحيان ، لا لشىء الا لأنهم سليمو الطوية لا يعرفون المكر كما لا يعلمون الخبث •

وامعانا فى اخفاء شخصية أمينوفيس ، كنت أخبر الناس أنه أخى الأصغر « أوتا » • وأنى أفضى اليه بأسرار الكتابة لأنه قليل الخبرة فى هذا المجال • وانه يعتز بالعمل اليدوى ويهفو الى الارتقاء فى مهنته على النقيض من أغلب الكتاب الذين يحتقرون العمل اليدوى •

ها نحن ندخل عند الحداد الواقف أمام فوهة الفرن على الدوام • ثم عند تاجر الأثاث المصنوع من الأبنوس ؛ ذلك الذى فرغ لتوه من صناعة أحد الصناديق • وبعد ذلك ندخل الحانات العتيقة : هذا محل صانع الأحذية الذى يعرض الكثير من الصنادل يبين لنا كيف يجهز الجلود بالزيت والشحم ! وهذا محل الآنية ، يعرض فيه صاحبه وهو يضحك بصوت عال أمفورة مستديرة ولها بطن كبير • وهنا يقول امينوفيس تمثيلا للدور فى اخفاء حقيقته : « سوف تجعلك هذه الأمفورة متغطرسا يا أخى بوباستوس ! » •

وكنا نزور مراسم الفنانين والنحاتين وصناع الحلى والأسلحة • كان هؤلاء يعرضون منتجاتهم فوق عارضات • وبعد ذلك اتجه الى مدير الأعمال الذى عليه أن يقيم المنتجات ويحكم بصلاحيتها أو بعدم جودتها • وكانت هذه المنتجات مزيجا من

التماثيل والأوانى الفخارية والمرايا والحلى والسهام • وبعد أن يقوم ذلك المدير بتفقد هذه المنتجات ، تعرض بعد ذلك فى منزل الالهة والأموات •

وكم كان الصناع يشتكون من تعسف هؤلاء قائلين : « لم نسمع قط كلمة ثناء أو مديح تبعث الأمل فى النفوس • وكل ما نسمعه أن هيا اعملوا سواعدكم يا رفاق ! » هذا كل ما يعرفون قوله •

ولم يجرؤ أحد أن يشتكى لأنهم حذفوا اسمه من قائمة الصناع، بينما كانت أسماء الرؤساء تبقى فى سجل القائمين بالعمل فى هذا المضمار على الدوام •

وكان الأمير الشاب يبدى اعجابه بالكثير من الابداعات والفنون • وكان يتألم من معاملة أصحابها بهذه الطريقة المجحفة ولعدم مكافأتهم على حسن صنيعهم فكان يقول : « لسوف أعطى لهذا الشعب المسكين مكانته ! هذا الشعب الملك » •

وذات مساء مررنا عند « زوبير » الحلاق • كان عائدا من دورته اليومية • عرض على هذا ان أحلق لحيتى وأن اضيىء وجهى بازالة شعرات غير مقبولة • وقد قام بهذه المهمة فى ضوء شعلة حملها « أوبا » وهو جالس على ركبتيه ، بينما ظللت واقفا لم أجلس نظرا لقصر قامتى •

على الأرض وقريبا من الجمع ، كان « أمينوفيس » يمسك بالشعلة فى يده ، كان يبدو شامخا طويلا يناهز عنان السماء ليقترب من النجوم •

ولما كان هذا المشهد فريدا فى ذاته ، فقد تجمع الناس فى هذا المكان الصغير • وقام « زوبير » بالقاء أبيات شعرية مرتجلة

تسخر منى فيضحك الناس • فكنت الضحية والفـداء • لكننى حينما كنت أهتدى الى رد سريع أو الى اجابة مفحمة ، كان الجميع يصفقون للتحية •

وكنا أحيانا نتوجه الى شاطىء النيل حيث البناءون • كانوا سجناء قادمين من الامارات المختلفة • وكانوا بمثابة قوة عاملة ذات وزن كبير : يقومون بصناعة الطوب من الغرين الذى جلبه النيل ، بعد خلطه بالرمل والقش المقطع • وأحيانا أخرى كنا ننتظر عمال المحاجر العائدين من الصحراء فى اعياء شديد •

كان الأمير يستمع اليهم ويسألهم ويندهش لردودهم • اذ رغم قربهم من المعابد والقصر ، فقد بلغوا مبلغا من البؤس والجوع • وذلك ما كان يفقدهم الاتزان والصحة •

وكانت طيبة فى ذلك الوقت، ملتقى لبـــلاد العالم فكانت الثروات تمر بها من الدلتا وحتى الشلالات • وكذلك كانت تصل اليها التوابل وأخشاب الأرو من الشرق وبخور بلاد « بونت » كما كانت ترد اليها منسوجات سوريا الفخمـة والاسلحـــة والأوانى المزخرفة من « فينيقية » •

كما كانت ملتقى لسكان بلاد النوبة وآسيا وتجار « فينيقية » وسكان جزيرة كريت وحدائق فارس وجبال ســـوريا والبرابـرة القادمين من الصحراء والبحر والمرتفعات • وكان أمينوفيس يستمع الى هؤلاء القادمين ، الى الكهنة الذين يعبدون آلهـة أخرى ، الى الصيادلة الذين يعدون العقاقير المختلفة والى الشعراء الذين يتغنون بالقصائد المختلفة •

وكان الأمير يتعرف فى وجوه الناس الذين قابلهم فى المدينة والبلاط على ذلك الانسان القادم من هناك ، من بـــلاد العـــالم المختلفة •

وصفت الكثير خـــلال الأيام الماضية وكتبت كذلك الكثير .
أما الآن فالوقت متأخر لأن الشمس غربت خلف الشاطىء الصخرى لهذه المدينة « الميته » .

يخيل الى أن جسرا قد أقيم فوق الزمان ليربط بين الفرعون الشاب وبين زوجته التى تناهزه فى العمر ، ولكى يكون كذلـــك همزة وصــل بين الشـــاب « بوبا ستوس » وبينه نفسه فى هذه المرحلة المتقدمة من العمر .

وخلال هذا الحوار الذى يدور بينى وبين الملكـــة ، كانت روحانا تتقدمانا وتقودانا القهقرى الى الماضى . وكنت اسائل نفسى أين نحن وأين نكون ؟ أين أكون فى هذا الجسد الذى هناك ؟ فى هذا الجسد القريب ؟ فى الحاضر تتقدم خطوة خطــوة كى يسير الزمان .. ؟ أم أننا يا ترى فى هذا الحلم الذى لا نكف عن تكرار كتابته ؟

وأسأل نفسى عما اذا كانت قصتى قد حـدثت بالفعـــل .
وأحيانا كان يراودنى الشك فى وقوعها لكن هذه الاحجار التى فى معيتى الآن دليل دامغ على حقيقة ما نقول . ورغم ان هذه الأحجار مهشمة متناثرة فهى رغم ذلك شاهد لصالح مدينة الأفق ولصالح من اقاموها .

وكانت الملكة «تى» تعلم تماما ما يدور في خلد ولدها أمينوفيس لأنه لم يكن يخفى عنها شيئا . لهذا كانت تعلم بجولاتنا السريـــة المتخفية . وكان لأفكارها التى أوحتها اليه أهمية بالغة تفوق ما كانت تتمناه . وكنت أردد دائما حينما كنت أتعبد للالـــه « آتـون » وأناجيه :

« ان مكان الشمس لا يوجد فى الظلال » وكان الدوار يصيبها

حين كانت تسمع هذه الكلمات • كانت ترغب فى أن يغير أفكاره لا بخصوص الآلهة وحدها وانما تجاه الناس كذلك •

وكثيرا ما كانت تقول لى : « انك سوف تثير غضب النبلاء • انهم سوف يتقدمون بالشكوى الى كبار الكهنة • وســـوف تنهزم ذراع الاله آمون لأنه لا يمكن لشىء أن يقاوم غضبهم • وســـوف يستخدمون كل ما يملكون من قوة لاجهاض هذه الفكرة •• حتى السحر » •

وكنت أقول لها : انه اكذوبة ! السحر اكذوبة ! انه سلاسل تقيدنا • أريد الها فاتحا ذراعيه ! الها لا يخاف ! الها تعترف به كل الدنيا وتسلم له • فكانت تقول :

كل قوم يتمسكون بالههم الخاص • فأقـــول : هذا الالـه سيغمر العالم كله بعطفه وحنانه • وان لم يفعل ذلك فأين ستكون رحمته ؟ وأين سيكون عطفه ؟ وأين حبه ان لم يبسطه على كل الخلائق ؟

وكان وجه الملكة « تى » يزداد ضجرا وضيقا • كانت تهـــز رأسها قليلا كما كانت تحرك ذراعيها القويتين فى كل اتجاه • وكانت فى مسلكها كمن يريد اختلاق الأزمات •

وكان أمينوفيس ـ رغم ما يوحى به مظهره من الضعف ـ يواجه تصرفاتها بهذه الكلمات : « سوف أسير فى الطـــريق الى النهاية • وكانت تنظر اليه وهى تقول باشفاق عليه : ستكون وحدك • فيرد قائلا : لن أكون أبدا كذلك • فتسأله وكأنها لم تسمع ما يقول : ماذا تقول ؟

فيرد مستطردا : ستقف نفرتيتى بجانبى حتى النهاية •

شاخ أمينوفيس الثالث وبلغ الخمسين من عمره • وانحطت قواه عقب مرض قرب نهايته • وكانت رؤيته لولده السقيم مع شعوره بتدهور صحته تدفعه الى المضى فى تأهيل ولده وتدريبه على شئون الحكم •

وفى تلك الأيام وردت أنباء عن حدوث اضطرابات وقلاقل فى الممالك الشرقية ، فنصحه مستشاروه بان يعقد اتفاقات مع مملكة « ميثان » تلك الدولة الواقعة بين البلاد الثائرة والغزاة القادمين من بلاد الحيثيين •

أرسل الفرعون سفيره الى « تسراتا » ملك ميثان يطلب منه ان يزوج ابنته الكبرى « تاديهيبا » الى ولده ولى العهد « أمينوفيس الرابع » •

وكان والدى أمينو أحد أعضاء الوفد الذى سافر لخطبة العروس حيث كان على علم بقوانين البلاد المجاورة أكثر من أى شخص آخر •• ولأنه كان يؤيد وجهة نظرى بالتعاطف مع فكرة زواج الأمير من نفرتيتى ، عمد الى اخفاء مهمته ولم يحدثنى بصددها الا حينما عاد بعد انجازها •

وبالفعل لم يتأخر « تسراتا » فى الرد ، وأرسل الأميرة « تاديهيبا » الى مصر • وقد رحب بذلك أيما ترحيب •

وكان أمينوفيس الثالث يخشى أن يصعب عليه اقناع الملكة « تى » بأهمية هذا الزواج ، خاصة وأنها قامت من قبل باختيار « نفرتيى » ابنة اختها « ستيامون » لتكون زوجة لولدها الأمير •

لهذا سعى الى اقناعها بسرعة يشوبها المكر والدهاء لأنه كان يعلم قدرتها على التخطيط والمراوغة عندما تتعامل معه ومع كبار الكهنة •

لكنها ـ وعلى غير ما كان يتوقع ـ باركت هذا الاتفاق تحقيقا لرغبة زوجها • كما أبدت رغبتها فى اعلان القرار بنفسها الى نفرتيتى • وعملت على ابعادها عن القصر فترة من الزمن •

كان كل الناس يعلمون بهذه الخطبة يابوباستوس ! حتى سيكى ! تلك التى لم تجرؤ على التحدث معى بشأنها • وكذلك لم أكن أعرف سرا لابتعاد امينوفيس فجأة •

كنت أبحث عنه فى يأس • ولم أمل انتظاره هناك فى نهاية الممشى • وكنت أراه سائرا فى ممرات الحدائق وسط الجموع من الناس دون أن أستطيع التحدث اليه •

وذات صباح دخلت الملكة « تى » فى رداء أبيض متموج ياقته عريضة فوق الكتفين ، لونها ذهبى وازرق • دخلت لتسوق الخبر الى مسامعى بلا مقدمات • وأضافت أنه لا ينبغى أن يعترض أحد على هذا الزواج الذى سيؤدى الى انقاذ البلاد من مخاطر الغزو ، كما سيكون من نتيجته انقاذ الفتى امينوفيس من خطر داهم •

لم أجد ما أقوله ردا على كلمات الملكة •

كنت باردة ميتة فى الوقت الذى كانت تطلب فيه منى أن أتماسك • وبعدها أخبرتنى أنها اعطت أوامرها لتجهيز مسكن فسيح لى كى أقيم فيه • وكان ذلك هو المسكن الذى كانت تعيش فيه والدتى « ستيامون » ؛ تلك التى حينما جاء ذكر اسمها على لسانها توقفت الكلمات فى حلقتها وضمتنى الى صدرها والدموع تنهمر فى عينيها • ثم قالت أنها لن تكف عن زيارتى للأطمئنان على •

من الصعب أن نسبر غور القلوب يا بوباستوس ! لقد كنت واثقة انها كانت تحبنى حبا كبيرا الى تلك اللحظة •

ويوم وصول « تاديهيبا » كنت بين من كانوا يتزاحمون فى الحدائق من أجل رؤيتهـــا • وكـــان يتقدم الموكب أحـــد مدرسى « امينوفيس » المدعو « آييـــه » والفتى « حـــورمحب » ضـــابط التشريفات • يومها لمحت العروس تسير منكسة الرأس ، كانت تسير بين نساء القصر ورجاله • وكان الجميع فى ملابس تزينهـــا الشرائط وأشغال الابرة •

كانت رقيقة رشيقة ، ترتدى الحلى وتمســـك بالتمثـــال « اشتار » آلهة الشفاء وكان « تسراتا » قد بعثه الى الفرعون « أمينوفيس الثالث » لينعم عليه بالشفاء •

كانت العروس فى الثانية عشرة من عمرها • ضعيفة هزيلة • وقد بدت عليها علامات التعاسة حتى انى أمسكت عن الحقد عليها •

وكنت فى تلك الأيام أعض على شفتى من الغيظ حتى ان الدماء كانت تسيل منها لمجرد تذكرى أن غيرى ستكون بين أحضان أمينوفيس • لكننى حينما رأيت هذه الطفلة ، لم أجد أثرا ولا مبررا لغضبى • وصارت آلامى عادية لا تبلغ درجة الهلع •

« أيتها العروس « تاديهيبا » الا يمكن أبدا أن آكن لك أية احساس بالكراهية حين تسيرين وسط العديد من المحيطـــين فى اتجاه كشك الأبهة والسلطان ؛ ذلك المكان الذى يضم الأسرة الملكية • فأنت صغيرة لا تعرفين من أمرك شيئا » •

وهناك أمام الكشك ، لا أرى أمينوفيس • انى على يقين انه سوف يظهر لفترة قصيرة من الزمن وسط الأهل ثم يغادر المكان ليهبط درجات السلم قادما نحوى وخطاه ثابتة • انه لن يعير هذا الأمر اهتماما • وسوف تتحول هذه الأفراح الى شىء آخر وسيصبح هذا البذخ رمادا • وسيمسك كل منا بيد الآخر وتذرف الصغيرة « تاديهيبا » الدموع التى لن تلبث أن تجف •

وهذا في الحقيقة خاطر يراودني ، لكنه لم ترد الى حتى الآن رسالة منه بهذا المضمون ! وربما يكون قد تحول عنى وعن محبتى وعن رغبته فى أن أكون رفيقة حياته . لكن الصمت خيم هناك .

وتبدأ العروس فى السير بخطى أكثر اتساعا . منكسة الرأس .. وقد وقف أمينوفيس ينظر الى الناس قبل ان ينظر اليها . ترى هل يبحث عني بين الجمع ؟

لا ! ها هو يسير نحو الميثانية الصغيرة ، وينزل درجة ، ثم درجتين ، عيناه الى الأرض والعروس تضع التمثال الصغير بين يدى الأمير . وأخيرا ترفع وجهها نحوه ... » .

وأخيرا أجدنى فى صحبة أمينو هناك على المصطبة . جالسين هناك وراء العائلة الملكية أمام الأميرة . لقد رفعت عينيها فى وجه الفتى « أمينوفيس » وما لبثت ان أدارت وجهها فجأة عن خلقته الدميمة : رأسه طويل ، عيناه ذابلتان ، والذقن طويل كذلك . وأخيرا قامته القصيرة الصغيرة وأردافه العريضة . وكل هذا لابد آن يصيب كل من يراه بالدهشة حين يقابله أول مرة .

وتتلفت العروس عدة مرات وهى خائفة باحثة عن ملاذ تلجأ اليه من بين أفراد بلاط والدها . وساعتها وضع أحد أقاربها يده على كتفها ودفعها الى الامام بلطف مع اصرار .

« كنت أذهب الى الميدان الكبير ، هناك وسط الحقول . ذلك المكان الذى فيه أبعدونى حتى تتم مراسم الزواج . ورغم ذلك كانت عيناى تتعلقان بالحياة . وكنت أعانى الكثير بسبب هذا البعاد عن « أمينوفيس » جرح كنت أحسب انه إلتأم منذ مدة ، لكنه فى الحقيقة جرح يدمى لأوهى الأسباب ، فمجرد ذكراه العابرة تثير آلامى : رائحة مذاق شفتيه ، تأكيده على حبى ..

كنت كالطائر الذى طار سريعا ثم هوى داخل شبكة الصياد ٠ كنت أعرف ان ذاكرتي تنصب لى الشراك ٠ ومع ذلك كنت استسلم لهذه الألاعيب والخدع وأقع أسيرة فيها ٠

لم أكن قد خلقت كى أعيش بلا حب جياش ٠ وليس لدى كلام يبعث الأمل فى قلبى منذ أيام وشهور ، لكنى لا اتصور ان ينخدع « أمينوفيس » أو أن يتراجع عن ما لديه من أفكار صالحة ليسير فى برنامجه الدينى ٠

وعندما استيقظ فى الصباح أتجه الى الساحة ٠ وهناك بعيدا عن مراسم البلاط ، أقوم بالتنزه فى حرية مع « سيكى » ٠ انظر الى الوادى الأخضر ٠ أتعرف على سكانه ٠ فهؤلاء هم الذين سيعملون على تبديد ما لدى من الآلام والهموم على مر الأيام ٠

أرض مصر المنبسطة الحنون ، لا تحجب الهضاب فيها الأبصار ٠ فتبدو الأرض وكأنها تندفع نحو الصحراء بدءا من ضفتى النهر ٠ انها هناك ، هناك أمام ناظرى ٠ وسوف تعلمنى هذه الأرض الكثير : سوف تعلمنى حنان المياه ، وصحبة الحيوان ، كما سوف أتعلم منها صداقة الشجر وسعادة الحصاد ٠٠ وفوق كل هذا وجه شعبها ٠

عشت فيها دورة الفصول : فصل الفيضان ، وفصل ظهور الغرين والأرض ، وأخيرا فصل الحصاد ٠ وقد شرح لى أحد المزارعين أن هناك أياما ثلاثة : أيام جميلة ، وأيام خطيرة والثالثة أيام معادية ٠

وقد شاهدت بعينى فصل جمع العنب وتأملت العاملين فى جمعه ، كما رأيتهم فى معمل النبيذ ٠ تأملتهم وهم ينشدون الأغانى فى صحبة عازفى الموسيقى ٠ وعرفت أن الانسان بمقدوره أن ينسى وأن يحس بالجوع ٠ هناك عرفت بيوتا من الطين ٠ بيوتا

سمراء من الداخل والخارج · كما اعتدت على رؤية عمل الفلاح المرهق · ذلك العمل الذى يبدأ مع اشراقة الصباح ولا يحده الا قدوم الليل ·

رأيت أحد العمال تحت شجرة نحيلة · كان التعب قد طحنه فنام · رأيته وسيده واقف يضرب كفيه ليوقظه بقوله : « قم من الارض والا أدخلتك فيها الى الأبد ! » ·

راقبت الفلاحين وهم يحصدون السنابل بالمناجل ذات اليد القصيرة التى أجيد صنعها من أجل الحصاد · وكانت وراءهم سيدات تجمعن حزم القمح فى السلال ·

وسمعت عجوزا تطلب حزمة من هذا القمح فى ساعة الغسق · ومساء وراء مساء كنت أعود بلا شىء · لا تقل انى عديمة الخبرة لأنى رجعت من الحقول ويدى فارغة · فى هذه المرة استسلم الحارس ولم يعترض نظرا لنفوذى وتأثيرى · لم تكن « سيكى » تحب ذلك · وقد وجدت صعوبة فى اقناع الحارس بأن السرقة ليست الهدف من قدومنا ·

داعبت الحمير الرمادية اللطيفة ، داعبتها وهى تركض بخفة مثيرة سحابات الغبار رغم ما تحمله على ظهرها من سلال مليئة الى حافتها · واقتربت من الثيران الضخمة راسها · وكان الراعى يحدثها بصوت منخفض :

« ادعس القش جيدا يا أخى لأنه وحده هو الذى يبقى لنا · وسوف يأخذ السادة الحبوب » ·

وسمعت باذر الحب يتغنى بجمال أرضه الغرينية المنبسطة حيث لا عشب ولا حصباء · سمعته يقول : « جميلة · جميلة أكثر من أى شىء يا صاحبتى الندية · ها أنت تعودين ! » ·

.. ورافقت حارث الأرض وهو يمسك المحراث بيده ، يلهب الماشية بالسوط ويسوقها بصيحات تنبعث من أعماق جوفه . ورأيت عملاقا يحمل عجلا على كتفه ويعبر به احدى القنوات الصغيرة . واستمعت الى شكوى أحد الرعاة بينما كان واقفا بين خرافه .

عرفت الرفق من العاملين بالحقول . عرفت كرم الضيافة . شاركتهم فطائرهم مع الخس . جلست معهم فى أكواخ بائسة فيها ينامون بجوار المواشى . أكلت التين مع هؤلاء . أكلت قطع البطيخ الأصفر كما شربت معهم عصير البلح .

كما صرت على دراية باستغلال رجال الاقطاع لهؤلاء . علمت أنهم يوجعونهم ضربا . وغالبا ما كان الكتبة سببا فى ايذائهم — معذرة يابوباستوس ! . ومثلهم فعل مساحو الأراضى وجامعو الضرائب .

وكان هؤلاء يأتون للاستجواب ، للقياس وتدوين الحسابات والأوزان . كانوا يأخذون أحسن المنتجات فكانوا أكثر سوءا من قطعان القوارض وأسراب الجراد والطيور ناقرة الثمار . هكذا وصفهم الفلاحون البسطاء .

مشيت فى دروب تحيط الزراعات وفى طرقات تسير مع النيل . ومشيت كذلك فى طرق أخرى تقود الى المستنقعات وأحيانا ما كنت أسير بمفردى وسط حقول تحفها نباتات برية ، وحين كنت أقرب هذه النباتات ، كانت تطير سحابة كثيفة من طائر السمان فوق رأسى .

أعرف صلف بعض الكتبة الذين يطمحون الى نيل الحظوة عند سادة القوم . وأعرف عقلهم الرياضى المدقق . كما أعرف استشعارهم السعادة فى اثارة الخصومات والمشاحنات .

لقد اعطاني والدى « أمينو » كتابا عن الملكية . ذلك الوالد الذى لم يكن يقرأ أفكارى . وكان أحد فصول هذا الكتاب عن وظائف الكتبة المختلفة المتنوعة . وكان يقول دائما : « ان الادارة تعانى من التضخم » .

تعلم يا ولدى الحديث من أولئك الذين يجيدون الاستماع ؛ فهناك غرف كثيرة فى بيت الحياة الآخرة للرجل الذى يظل لسانه متواضعا ، وسيفا قاطعا للذين يحبون التظاهر بين الناس .

وقد اتهمت بالتدليس فى حراسة الشاب أمينوفيس . ووجه اللوم الى لأنى أحد المؤمنين المخلصين لآرائه الخيالية . لهذا باعدوا بيني وبينه ولم يسمحوا لى أن اشترك فى بلاط نفرتيتى القليل العدد والذى أقصوه بعيدا عن القصر .

ثم عينت بعد ذلك فى وظيفة تسببت لى فى الكثير من المتاعب . وكانت مهام هذه الوظيفة أن اشرف على العبيد الذين يشقون الترع ويمهدون الطرق ويشيدون المستودعات والأرصفة .

وحينما ظهرت بوادر الشفاء على « أمينوفيس الثالث » أخذ يتطلع الى السلطة والمتعة . فأدخل كثيرا من خليلات الملكة « تى » فى الحريم . وبعد ذلك ولدت له أطفال عديدة ، منهم اثنان ورثا العرش : « أمينوفيبس الرابع » فرعون المستقبل ــ وهما « سمنخرع » و « نبخرع » الذى أطلق عليه فيما بعد « توت عنخ آمون » .

وقد اتهمنى والدى بالمرونة فى أداء ما عهد الى . وسعى الى أن يجد لى عملا آخر مؤكدا عدم قدرتى على الخروج من المآزق فى عالم مليء بالمشاكل والمكائد . وأنه كى انجح فى عملى لا بد أن أغير أسلوب عملى . وشرح لى أن سبب شهرته الفائقة هو حزمه فى أداء وظيفته .

كما روى لى كيف استطاع أن يجرد من حوله مما لديهم من سلاح وان يجعلهم يضحكون سخرية من أنفسهم • وجعلهم فى نفس الوقت يضحكون استهزاء بى فقال :

« لكى تعوض الطبيعة ما سلبته من والدى « بوباستوس » جعلته فى صورة قزم عموده الفقرى صلب لا ينحنى على أية حال • وذلك كى لا تطير فقراته اثر تمزق مروع فى عظامى ! » •

وقد حكى لى ذلك فى بهجة يواكبها الحنان قبل أن يسوق الى خبر حصوله على وظيفة كاتب محكمة من أجلى •

ولم تكن هذه نهاية متاعبى • فقـد كلفت بأمر لصـوص صغار • أسجل الأحكام بعد أن أسألهم • وكان القاضى « بنتو » ينادى بهذا الشعار ويدعو الى تطبيقه : « لا تكن قاسيا » • لكن القاضى « ونس » كان هو الذى يمارس العمل فى أغلب الأحيان • وكان المتهم يتأوه حينما يرى شعار « بنتو » كان يقول : الألم ! الالم فى جسدى !

وكانت أحكامنا أقل قسوة من أحـكام الآشـوريين الذى يخوزقون اللصوص • أما نحن فلم نتجاوز ضربهم بأغصان الشجر على أيديهم وأرجلهم ـ وكنا نقطع الأنف والأذنين فى حالة نابش القبور • وكنت اسمع هذا السؤال يخرج من بطن الحامل :

ـ بأى طريقة حصلت على هذا الاناء ؟

فيكون ردها : وجدته فى منزلى •

ـ فأقول اذن أرنى مكانه •

وكنت أسمع كذلك هذه الأسئلة ؟ •

ـ من أين تأتيك هذه النقود يا بن ال •••• ؟

فيكون الرد : هذه ثمن أكياس الشعير ..

ـ شعير ! نذل حقير ! ان أهلك واحفادك القادمون وحتى الجيل السابع لن يزرعوا شعيرا يساوى هذه النقود .

كانت هذه سنة الضباع أيها القاضى ! كل الناس كانوا جوعى . وكانت هذه الحالات تنتهى الى أمر سيىء . وكان الكثيرون ينتهى بهم الأمر الى الأعمال الشاقة أو المناجم .

أذكر نافخ البوق « تو » اتهموه بانتشال سلسلة ذهبية وبيعها . قام رجال الشرطة بتعقبه كى يسلم شركاءه فى السرقة أو يعلن عنهم . ورغم ضربات العصى فلم يزد عن تكرار هذه العبارة : لم أر شيئا ، لم أعمل شيئا ! لم يضعف ولم يعترف . ألقوا به فى السجن وصادروا آلته . وبعد ذلك استطاعوا ان يعرفوا من قام بارتكاب الجريمة فأطلقوا سراحه وأعادوا اليه البوق .

وأحيانا أخرى كنت أقوم بفض النزاعات وأشترك فى كل الردود . وفى الحديث كان المتنازعون يثورون . ومع ذلك لم تفسد الشتائم النزاعات .

وكنت أقوم بتسجيل هذه النزاعات والشتائم فى المساء . أكتبها فى متعة فائقة وأشكلها على ورقتى البيضاء على هيئة الثعبان المرح . اليك بعض هذه الشتائم :

ـ ياراس القصعة يا من لا تقتنى غير الأوز

ـ يا أنف بلا انفاس !

ـ أذنيك كالفطائر . كبيرتين !

ـ الشمس يحجبها وجهك !

ـ لا يناسبك غير الكلأ ، فأنت تستحقينه !

ـ فمك مغلق كالمعصم !

ـ كلامك لا قيمة له !

ـ كيس من الطل !

ـ من يمكنه أن ينفذ من بين أستار عقلك ! ياغبى !

ـ لقد مر الذكاء بجوارك !

ـ لسانك ذو ثلاث شعب !

ـ قارب بلا ضابط يحكمك !

ـ عقلك من البذر !

وكنت أقوم بتسجيل هـــذه التقـــارير فى سجلات كثيرة ، وتتكوم رزم الورق بجوار الجدران حتى أنى خشيت أن تغطينا تحت ثقلها .

وكم اتساءل عما اذا كان هناك فى العالم بلد مثل بلدنا يحتفظ بمثل هذه السجلات والمستندات ، وانى فى الحقيقة لمشفق عـــلى أولئك الذين سيحاولون فك هذه الطلاسم بعد حين .

« وعدتنى يا قلبى أن تتحمل بشجاعة هذا الغياب وأن تظل صابرا يحدوك الأمل » .

ذات صباح ، جاءنى رســـول أمينوفيس حاملا تلك الكلمات على لوح من الجير وحين قرأتها استقرت على الفور فى انحاء جسدى ولم أسأل نفسى الا بعد مدة عن ذلك الذى يذكرنى به أمينوفيس ، كما لم أتساءل عن سبب هذه الرسالة المفاجئة .

وفجأة كذلك تخبرنى « سيكى » أن الأمير كان قد أرسل الى عدة رسائل لكن المحيطين كانوا يقومون بنشلها تنفيذا لأوامر بهذا الشأن • فنظرت اليها مندهشة • اذ كيف سمحت لنفسها بأن تكون شريكة فى هذا العمل • فبدأت ترتعش والدموع الغزيرة تنهمر على خديها ، وما كان منى الا أن ضممتها الى صدرى لأهدىء من روعها • وأوضحت لى المربية أنها قبلت ذلك كى يسمحوا لها أن تكون بجوارى :

« كنت بذلك أريد أن أعمل أى شىء كى أظل قريبة منك » •

وكان رسول « أمينوفيس » الذى حمل الرسالة قد أخبرنى أنه ليس بمقدوره أن يعود ثانية الى طيبة وان من المستحيل ان يأخذ معه أية رسالة الى الأمير •

كنت أعرف ان زواج الأمير من « تاديهيبا » قد اقترب لذا سألت نفسى : أى انتظار يطلبه الأمير منى ؟

ورغم ذلك كانت الكلمات التى أرسلها الى فى ذهنى على الدوام • لقد حفظتها عن ظهر قلب فأعطتنى الثقة العظيمة فى نتائج لم يكشف عنها النقاب •

ولا أدرى أية قوة وأية دقة قلب كانت تقنعنى بأن فكرى سوف يصل اليه • فقد أخذت كلماته فى الحسبان ، وأخذت أرددها فى صمت على مسامعه • لهذا سوف أتحمل هذا الغياب يا قلب • ولن أتعجل ولن آمل •

الجزء الثاني

وصلت الملكة « تى » فى موكب محدود دون أن يعلن أحد عن قدومها • وبعد أن اجتازت السقيفة التى أمام الباب وفى الساحة فتحت ذراعيها لاستقبالى أمام بعض رجال البلاط •

وقالت حينئذ : « لقد جئت الى هنا لكى أعيدك الى « طيبة » لأننا سوف نرحل جميعا الى هناك • وقد أعجبتنى جرأتها فى التحلل من الرسميات وتخليها عما اعتادت عليه من المواكب والتشريفات والمفاجآت •

واختفت « تاديهيبا » !

كنت أقف بجوارها فى العربة حين هرول بعض الفلاحين نحونا • وكانت الملكة حينئذ تتعجل الرحيل الى « طيبة » ورحل الحصان راكضا • اختفت ؟

وصمتت الملكة وبدت فى وجوم ثم بعد لحظة قالت : انها الآلهة بلا شك !

ـ وبالطبع لم أكن أعرف شيئا عن ذلك • وساعتها ، لم تلبث الملكة أن تجعل منى حبيبتها الوحيدة ! فقالت :

ـ ان « أمينوفيس » تلزمه زوجة وكم تمنيت أن تكون أنت ، وأخذت يدى فى يديها •

ورغم كل تقديراتها وتفكرها العميق ، كانت قوية الايمان • كانت حماسية متوقدة • وكان الجميع يميلون الى الثقة العمياء فيها •

أدخل قصر « طيبة » وأتقدم مع الملكة تحت الأسقف المزدانة وبين الأعمدة وقد تملكنى الشعور بالعظمة • وكل من بالقصر الملكى ينحنى عند مرورنا أمامه •

وكان ينتابنى الشعور بالاغتراب رغم ذلك • كما أحسست بكراهيتى للمكان • فأنا لست ملكة لهذه الأماكن • فلا الأرض ولا الناس الذين قابلتهم هناك يفارقون مخيلتى •

طلب الفتى « أمينوفيس » حضورى • وكنت منذ الليلة الماضية أعاود الظهور فى البلاط • وقام كاتب الأمير باستقبالى • ذلك الأمير الذى كان يرافقه حين كان بعيدا عنى • وقد استقبلنى بنوع من الكآبة • كان هذا يدعى « هاتى » • وكان هذا الكاتب نحيفا مثلى •

وكان « أمينوفيس الثالث » يدنو من أجله • لقد دهمه المرض ولم يدعه يعرف طعم الراحة • فتسلم ولده « أمينوفيس الرابع » البلاط • لتتاح له الفرصة فى ممارسة الحكم • كما أسماه والده « المساعد فى الحكم » أو « مساعد الحاكم » وبعد ذلك أعلن زواجه من « نفرتيتى » •

ولكن ما هو مصير « تاديهيبا » ؟

كل كان يفسر بطريقته وحسب هواه علة اختفائها الغامض هناك من قال انها حينما رأت الأمير انتابها الهلع • وان الأمير نفسه رغم أنه كان يتظاهر بالموافقة على تنفيذ رغبة والدته فقد وهبها للأمير « زادى » الأمير الاقطاعى الشاب • ذلك الذى وصل على وجه السرعة من مدينته « تانيب » وحين أعجبته الفتاة وأعجبت به رحلا سويا •

وأكد آخرون أن الفتاة الميثانية القت بنفسها فى الماء بسبب خلقة عريسها الدميمة • ويحكى أن أحد الجنود المراقبين للأمن رآها تفعل ذلك فى احدى الأمسيات وأنه رغم نداءاته المتكررة ، أزاحت الأعشاب وغاصت فى مياه البحيرة تحت ورد الماء والأعشاب

كما دفعت نية البعض الخبيثة الى استئجار الرجال لتفتيش البحيرة ، فقطعوا النباتات من الجذور وأبعدوا نباتات عرائس النيل ومع ذلك لم يعثروا على جثة لها •

كما احتار النمامون والوشاة في تفسير تصرف ملك « تسوراتا » الذى ظل محتفظا بعلاقاته الوطيدة مع مصر • وقد دلت رسائله على هذا الاخلاص ، اذ كان آخرها يتضمن حديثا موجها الى « أمينوفيس الثالث » وولده العزيز « الحاكم المساعد » •

وفى اليوم التالى قادنى الوزير « رعمس » الى صالة الاستقبال ، حيث كان الملوك ومستشاروهم • وحينما دخلت على الملك تأثرت كثيرا لتدهور صحته • وكانت زوجته الملكة « تى » بجواره • كانت تجلس على كرسى ذى مضجع مرتفع وله أرجل أربعة فى شكل أرجل الأسد • كانت تبدو أكثر تماسكا ووقارا من أى وقت مضى •

وكان الفرعون فى ملابس واسعة مطرزة تطريزا أسفله مثل قاعدة أثاث منقوشة • كان متهاويا فى الكرسى الذى لا يتعدى ارتفاع ظهره ارتفاع اليد • وكان تحت وقار التـاج ولمعان ياقات ثيابه وثنياتها •

وحينما رآنى اعتدلت قامته ثم لم يلبث أن هوى فى الحال خائر القوى فى جسم منتفخ لا لحم فيه ولا عظام •

كان الموت يخيم على الصالة • أشارت الملكة الى كى أدنو منها فاقتربت منها وجلست على مقعد بلا ظهر أو جوانب أمـام الملك الذى لاحظت كل شىء يتألم فيه : طرف أنفه المثالية الشكل جبهته المتوازنة ووجهه البيضاوى وكذلك شق عينيه اللوزيتين • كما لاحظت فيه بشرة متراخية فوق أسنان متناقصـة ، وأثـار قروح كثيرة تغطى كل ملامحه •

كنت مرتبكة •• لا أتكلم • فمنذ طفولتى كنت أشعر بضعفنا نحن البشر • وحتى لاتباغتنى الصدمة ، كنت أتصـور وجوه أحبائى غارقة فى حمام من التجاعيد والانتفاخات والأمراض لكن الحقيقة الأليمة كانت تفاجئنى كل مرة •

وأحيانا كنت أغسل الوجوه التى غزاها الشيب بالمياه فكان أثر الارهاق يتبدد من عليها • وكانت البشرة تستعيد تماسكهـا وتسترد العين قدرتها على الرؤيا •

ولكن نضارة الشباب وطراوته أجمل كثيرا من صـورة الشباب نفسها • لأن جوهر الشباب ذو رائحة قوية نفاذة تنبعث من تحت بشرة مشدودة •

وكنت أنظر الى أمينوفيس الثالث بدهشـة • كان الدمار قادما • ورغم ذلك ، كان هناك شىء فيه مازال ينبض بالحياة •

كان عقله متوقدا بفكر براق • وكانت رقبته ترتفع •• وكان هناك ضوء حاد ينبعث من حدقة عينيه • وبعد ذلك لم نعد نرى هذا مرة أخرى • ورقد الملك فى خمود •

ويأتى الأمير نحونا من آخر الصالة •• أعرف خطواته دون أن التفت ورائى •

وحين هممت بالوقوف والجرى نحوه أشارت الملكة الى كى أظل فى مكانى • وبعدها أحسست بيد « أمينوفيس » فوق كتفى •

عرفته من حرارته البـاردة المحمومة ، رغم قواه المتماسكة وأغلق عينى حتى تكسونى قوته • وبعد قليل يجلس على الوسائد بالقرب منى •

هنـا معبد آمون بالكرنك معبد الأسرة الملكية • ويأمر الملك الجديد ببناء معبد للاله الشمس ! شرق المعبد الملكى آمون •

وكانت هذه الآراء تلقى مؤازرة من الشـــباب المتحمس لمعتقداته • وقد أعلن موظفون كبار مثـل المدير « لوتى » والقائد « موسى » والكاهن الكبير « ميرينيه » ، أعلنوا تأييدهم لهذه التعاليم والآراء • كما سار وراءهم آخرون •

وكان هناك وبلا شـك من يترقبون سـير الأمور أملا فى انتهازها والاستفادة منها لصالحهم •

كذلك تحمس حاكم طيبـة « رعمس » ووزير « أمينوفيس الثالث » قبل وفاته لآراء الفرعون الشاب • وقد كان لهذا التعاطف من جانب « رعمس » على موقف الملكة « تى » أثر كبير مما جعلها هى الأخرى تتحمس لأفكاره •

وقد خصص معبـد « رعمس » الجنائزى والذى حفـر فى

الصخور ، خصص للاله آمون ٠ وأقيم على نقوش بارزة تمثل فى شكلها الشاب أمينوفيس ٠

وقد توجه الشاب الى الوزير بهذه الكلمات التى رددها كثيرا على مسامعه :

« كلمات الشمس أمامك ٠ ليست غريبـة عن قلبى ٠ لقد عرفت الاله الوحيد الذى تجلى أمام وجهى ٠ لقد فهمت » ٠

وتسربت الى الشعب هذه الأفكار ، ذلك الشعب الذى كان يتأهب للوثوب والثورة فى كل مكان ٠ وكان الملك الشاب يتنزه جهارا وفى يده شعاره المتمثل فى قرص الشمس ٠

وبدأ هذا الشعار يظهر رويدا رويدا على جدران المدينة دون أن يعود الشعب الى آلهته الصغيرة المعتاد ٠ وقد تجلت هذه العلامة واضحة جلية لمفهوم العقل ٠

بدأ أمينوفيس يعترض على كبير الكهنة وبعض رجال القصر ٠ ولم يجـرؤ هؤلاء على مواجهته لأنه ـ كمـا تصوروا ـ يستمد سلطته من الآلهة ٠ ولأنه كان محبوبا من أغلب الشعب ، فقد كانوا يؤيدونه ٠ لهذا كان مستعدا أن يقاطع الكهنـة ورجال القصر ٠

وقد حاول والدى « أمينو » الذى ورثت الحماس عنه تجاه المواقف ، حاول ان يثنينى عن هذا الطريق مؤكدا على أن الأفكار العظيمة يمكن ان تشتت أذهان أولئك الذين يؤمنون بها ، أن القلب الكريم قد يكون مملوءا بالسراب أحيانا ٠ وهو يرى أن أمينوفيس الشاب حاكم لا يعرف طبيعة الأشياء والناس ، وأن ٠٠

فرددت عليه قائلا ، اننا لن نخرج من الظل أبدا اذا لم نتجه

الى الضوء حتى ولو كان خافتا . ان طبيعة الأمور المستقبلية تقوم على تصورات الحاضر ، وان الناس لا يخلدون الا اذا خاطروا من أجل المستقبل . وانتهى الحوار بيننا بلا فائدة . ولم يتقدم أحد خطوة تجاه الآخر ! »

ولست أقوم بمقاطعة مجمع الأرباب لأجل خاطر الاله المضيىء آتون ، من أجل هذه الشمس التى أنا أحد أبنائها مثلما تكون الملوك ومثل بقية الناس . حتى البؤساء منهم .

سوف أدير ظهرى استخفافا بالاله الكلبى والقردى وبالاله أبيس وكذلك الاله الذى له رأس القط . سوف لا أنظر الى التماسيح المبجلة ولا الى الأسماك فى المياه الحلوة أو ثعابين الكوبرا . وسوف أبتعد عن اثنين وأربعين شيطانا مرعبة وعن العفاريت الأربعة . وكذلك عن الاله المتمثل فى العقاب وسأبتعد كذلك عن الجعران . وسوف أترك بلا دمعة ندم تلك اللبؤة الاله التى تتهادى فى انهار من الدماء ، وكذا سأترك ابن آوى الذى يجوب الصحراوات . سوف أبتعد عن كل هذه الآلهة التى تجهد العقل مثل « باستيه » ، « توت » ، « خونسون » حتى عن هاتور !

وسوف أسير بعيدا عن كل هؤلاء أيضا « سيبك » و « خنوم » و « سيكاميه » و « أبيس » و « بتاح » و « حورس » وعن اله الفجر « خبرى » واله الظهر « رع » وعن اله الغروب « آتون » الذى سوف ينجب « شو » و « تفيبس » اللذان سيلدان « جب » و « نوت » .

سوف أترك الجميع بدون قلق على ذلك من أجل « آتون » العادى تماما . سوف أترك كل تلك الآلهة .

اله واحد يلازمنى دائما ، هو الاله « بس » فهو الذى يدافع

عنى ويحمينى من النظرة الحاسدة . أمسكه دائما فى راحة يدى ولا أنشغل الا بتأمله خاصة رأسه التى يزينهـا الريش ولسانه البارد المستدير . وكل هذا يجعلنى فى راحة بال ذا مزاج معتدل! لذا سوف أحتفظ به وقد قررت ذلك وعزمت على تنفيذ قرارى !

أغرق موت أمنيوفيس الثالث كل البـلاط فى الأحزان . وتزوج الأمير نفرتيتى بغير رسميات أو أبهة . ثم تلى ذلك تنصيبها فى هدوء .

وجهزت مقبرة المرحـــوم الفرعـــون . تلك المقبرة هى « دار خلوده » وتم تحنيطه حسب القواعد والأصول . وقام الكهنة بلف كل عضو من جسده بكل العناية الفائقة كما ربطوا جسده بقماش من التيل الخفيف الدقيق بعد أن غطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ .

وخلال الأيام الأولى لوفاة الفرعون ، اضطلعت الملكة « تى » بادارة بعض الأمور العامة . فكان يتجه اليها القادمون الى القصر يساعدها فى ذلك مستشاروها . وكانت تعتمد بعض المكاتبات ؛ وفى بعض الأحيان كانت تستبدل اسم الاله « آمون » باسم الاله « آتـون » .

لقد عاد الملك الكبير الى الحياة الأخرى . ماذا حمـــل معه ؟ هل حمل معه كل هذه الثروات والمؤن ليملأ معدته ؟ وهل ستؤمن هذه الثروات وجوده فى ذلك العالم الآخر ؟

ومنذ أن يجتاز الانسان عتبة العالم الآخر ، هل ياترى تسجل الحسنات والسيئات ؟

أنا لا أشى بالآلهة ولا أفترى عليها ، كما لم أخطىء فى حق

الناس . أيتها الآلهة ذات الخطى الواسعة ، يا ملتهمة الظلال ، يا كاسرة العظام ، يا آكلة الدم ، لاتقفوا ضدى ! » .

كان يوصي بأن يقال ذلك للملك !

« كنت الوحيدة التى طافت مع الملك الشاب فى معبد الكرنك . ذلك المعبد الذى كان قد أمر ببنائه أثناء ابعادى .

وفى كل المعابد الأخرى ، كانت الأماكن تظلم حين يمر الانسان بالصالة المقامة على أعمدة وحين يمر من قداس الى قداس الى مكان الموقد الكبير . أما هنا فأمواج الضوء تغرق المعبد المقدس .

انظر . سترى الشمس حرة

وهناك تغلف الظلمة ضوء النهار ويكون الشعاع باهتا . هذا النوع من الضياء ينتشر فى أرجاء الهضاب المخضرة قبل ان يصل الى المخلصين .

أما هنا فينتشر الضياء دفعة واحدة .

أخذ البعض فى الآونة الأخيرة يشجع أمينوفيس ، وأخذ البعض الآخر يثنيه عن تنفيذ اصلاحه الدينى . فكان فى صراع داخلى مع نزعاته النفسية . ولكنه يعتقد انه كلما عانى من الحيرة أمام المشاكل الكثيرة ، ازدادت حياته الأخرى عظمة . وهو يعرف الآن أين يتجه ويتمنى أن أبارك أفكاره وآراءه .

ولم يشعر أبدا أو يجعلنى أشعر ان أنوثتى سبب لعدم مقدرتى على النظر الى الأمور نظرة ثاقبة تتجاوز الحاضر الى المستقبل كما تتجاوز العزيمة التى تهزم نوائب المستقبل .

كنا مختلفين الى أقصى الحدود • وكنا نسعى الى أن نظل كذلك • لكنه كان يثق بي الى درجة كبيرة لدرجة أنه كان يعتقد أنه في مقدرتى أن أخترع الجديد وأكتشف المجهول • وكانت ثقته هذه في قدراتى تضاعف من امكاناته وقدراته •

وقد أفصح لى أنه يتمنى ان يترك اســـم امينوفيس وأن يسمى نفسه اختاتون أى « الذى يؤمن بالاله آتون » •

وعرض على مشروعه الخاص باقامة عاصمة جديدة بمساعدة من يشتركون معه فى تحقيق الأمل الجديد • وكان يعتقد أن أرضا هادئة يمكن ان تحررنا من تراكمات القرون والمعجزات والظلال . كما يمكن ان تسهل له مهمته الجديدة •

وكان قد استشار بهذا الصدد المهندسين وكذلك صـــديقه المخلص النحات « بك » • ولأن هذه المدينة سوف تولد تحت شعار الشمس المتحررة من القيود ، اقترحت أن يكون اسمها « مدينة الأفق » وقد قرب هذا الاختيار من وجهتى نظرنا وتوافقنا •

وتهب رياح الحرية على طيبة • ويتخذ الاستعداد اللازم من أجل الرحيل فى وضح النهار • أعدوا القارب الملكى فى النهر وجهزوا الأشرعة • كما تأهب المجدفون والبحارة والقائد للمهمة •

أعلن الملك أنه سيركب النهر فى اتجاه عرض الدلتا نحو مصب النهر فى البحر ، أملا في العثور على مكان مناسب ليشيد مدينة الأفق بين طيبة وممفيس •

وتحدث عن ذلك جهارا الى الشعب الذى أعرب معظمه عن الرغبة فى اللحاق به ليشترك معه فى البحث • فقـال لهم ان يصبروا بعض الوقت •

رحل اخناتون فى صحبة الملكة ومعه بعض المخلصين • وحين اكتشف المكان الملائم ، قام بارسال مندوبين الى العاصمة القديمة ليخبر الناس أن جهدهم ضرورى الآن لبناء مدينة المستقبل •

واجتمع كبار الكهنة فى أماكن خفية • اجتمعوا مع المعارضة وأوحوا الى المعارضين من الشعب باثارة المتاعب ، بل وأطلقوا بينهم شائعة تقول ان الملك أصابه مس من الجنون مما سيكون له أثره المشئوم فى المستقبل على الجميع •

بل وأخذ الكاهن الأكبر يلوم نفسه على تهاونه الذى سمح للأحداث أن تبلغ هذا الحد • وقال فى هذا :

« ولكن من كان يتصور فى البداية ان الملكة « تى » سوف تتحول الى عبادة الاله « آتون » • تلك العبادة التى تزدهر أحيانا وتخبو أحيانا أخرى ؟ أليس فى تحولها هذا الى هذه العبادة دليل على تقلب النساء وعدم ثباتهن على حال ؟ ومن كان يتنبأ أن شطحات الأمير الشاب كانت شيئا غير نزوة المراهق ؟

استولى العزم على أخناتون النحيل لدرجة جعلت أصحاب الفكر المعارض يعجزون عن مجابهة أفكاره جهارا ! ، فتظاهروا بالخضوع لاسم « اخناتون » كدليل على استمرار الاصلاح •

وكان ذلك ضروريا بالنسبة لهم فى أيام التيه والاختلاط فى الأمور • فقبلوا لقاء الناس فجأة ومخالطتهم دون حواجز • وأصبح الذين كانوا يؤكدون للعامة أن الطبيعة تأمر بالخضوع التام لسلطاتهم والذى لا تستجيب الا اليه ، أصبحوا مضطرين — وهم أصحاب المقام الرفيع — الى قبول مشاركة الشعب فى أمور البلاط •

وكانوا يهمسون بالشكوى من أن هذا الأخناتون قد خلط الأمور : الحب والدين ، المصرى والأجنبى • كما أن رغبته فى اقامة مدينة أخرى فى مكان آخر لتكون عاصمة جديدة اهانة «لطيبة» •

أى مدينة تجرؤ على القيام أمام طيبة التى لا يحل محلها شىء ؟ وقد صارت هذه مركزا للعالم بعد أن كانت ممفيس فى هذه المكانة منذ أكثر من قرنين من الزمان •

طيبة ذلك المكان العظيم الممتاز ، مركز الامبراطورية العظمى التى تمتد من مياه نهر الفرات حتى بلاد النوبة ، سوف تبقى مقرا للفنون والآلهة والفكر •

وأين كان الملك الشاب يختفى ليعمل على النيل من مكانة طيبة وقوتها وتماسكها ؟ ان هذا الرحيل من شأنه أن يقلل من شهرة العاصمة ، لأن وجود الفرعون فى مكان يضفى على هذا المكان صفة القدسية •

وبعد العديد من الأيام خرج الملك وأسرته الى الشاطىء للسفر وأمكننى ان أحصى بعدهم « آييه » المسئول عن التغذية و «ميرينيه» كبير الكهنة والنحات « بك » والبنائين المهرة • وكذلك خبراء التربة ومتأملى النجوم ورجال الفلك •

وعرفت من بينهم رعمس والمدير « لوتى » وكذلك القائد « حور محب » والمدير « توتو » معلمى وأستاذى كما رأيت «سيكى» مربية الملكة والوزير العجوز السمين « نخت » ذلك الرجل المهذب اللطيف الذى لم يكن يرد سائلا دون أن يطيل الاستماع الى شكواه •

حتى ولو لم يستطع أن يؤدى له شيئا •

كنت أحبى « ماهو » رجل الشرطة الذى كان ينام عند تكليفه بالحراسة ٠لم يكن يترك أبدا الأوزة « سمون » لأنها كانت عدوانية متيقظة ساهرة ٠ كانت تخبر سيدها بأقل انتهاك للأمن بأن تطلق صيحات أجشة كما تنقره حتى يستيقظ ٠

وقد سبقنى الى مؤخرة السفينة الحلاق « زوبير » وكنت قد تمكنت من الحصول له على اذن بالابحار معنا بفضل الصديق « توتو » ٠ وركب بعده ثلاثة من الموسيقيين أيضا وبعدهم ركب أربعة من الكتبة وكانوا كلهم تلاميذ « أمينو » ٠

ودعنى والدى على الرصيف هامسا فى أذنى ٠ قال انه أحيانا يسأل نفسه عما اذا كان لهذا الحمق سبب مقبول ٠ وأضاف فى تأثر أن تقدم السن أثر فى عينيه فلم يعد يرى جيدا ٠

لقد تحدثت عن « ناخت » السمين وعن « ماهو » وأوزته ٠ وعن « زوبير » الحلاق وعن الكتبة الأربعة ٠ وكنت أنا « بوباستوس » خامس هؤلاء الأربعة ، خادمك المتواضع ٠

« تجمع الشعب على رصيف النهر من أجل الوداع ٠ كانوا قد أعدوا لوحا مسطحا للملكة خاصا بها لتمر عليه الملكة « تى » وكبار الشخصيات ٠

وكانت الملكة « تى » قد وعدت بأن تلحق بنا بمجرد أن نبدأ فى تشييد المدينة ، وربما كان السبب فى تغير موقفها فجأة هو عادتها فى ذلك ٠ فهل يا ترى تبحر معنا هذه المرة فى اللحظة الأخيرة ؟

لا ، ظلت واقفة لا تتحرك ٠ وقفت كالتمثال الواقف فى شموخ كأحد معالم مدينة « طيبة » وهى فى هذا لا تختلف عن التمثال فى كثير ٠

كانت شفتاها ترتعشان وقد أغمضـــت عينيها فجأة لتخفى ما ألم بها من حزن عميق ٠

ورغم سعادة اخناتون الغامرة وهــو يتجه الى المدينة الجديدة كان يستشعر الوحدة وظل ينظر طويلا تجاه والدته ٠

وكلما كان البحار يبتعد عن المدينة « طيبة » كانت تبــدو فى عينيه أكبر مكانة وأعظم شأنا ٠

ها نحن نبحر ببطء شديد ويبدو أن الهواء قد تحالف مع كل شىء من شأنه أن يوقف مسيرتنا ٠٠ ويأمر القائد بالتجديف بجد واجتهاد ٠ وبدأ ايقاع الأغـــانى يتوافق مع ارتطام أمواج النهر ٠ وأتقدم بمفردى نحو مقدم السفينة المنحنى الى الأمام ٠

لا يمكن أن نقارن شيئا بحركة المياه ٠ ولا يمكن أن يبدأ شىء أساسه اخلاص الأرض بمثل هذا الغموض لكى يزداد هذا الشىء اتساعا باتساع البحار ٠ كما انه لا يخضع شىء بالمرة هكذا مثلما خضع هذا الأمر الى مصادره ٠ كما انه لا ينتهى شىء بهذه الصورة الى المجهول مثل هذا الذى يحدث ٠

وعلى شاطىء النيـــل ذى المنازل الطينية ، كان الســـكان يرتعشون وكانت الأشجار كذلك ومثلها الحشائش والحيـــوانات كل شىء كان يرتعش فى داخل نفسه وفى صدى ذاته ٠

وتخبو « طيبة » بعيدا ولكن هل ســـوف تتخلى طيبة عن أصولنا ؟ واتجه الى أخناتون الذى جاء بدوره نحوى ٠ جاء يسألنى: هل سنعثر على المدينة الأخرى ؟

ان هذا المكان موجود ، وســوف أتعرف عليه ، ثم أحاطنى بذراعه قائلا « سنجد المكان سويا » ٠

استيقظنا مع اشراقة الفجر • وكان يحيط بنا أسطول نهرى صغير • ولم يستطع الرجال والنساء والأطفال أن يقاوموا رغبتهم الملحة فى السير وراءنا ، فتجمعوا فى قوارب مسطحة وأخذوا ينادون •

وهنا وقف وزير التغذية « آييه » وفى صحبته « حور محب» بصوته الحاد النبرات ، وقفا فى مؤخرة القارب الملكى ، وقفا يناشدان الناس أن يرجعوا •

ولكن « نخت » السمين صاحب المزاج المنشرح والنفس السريع كذلك ، وقف على عارضة خشبية يصيح بأعلى صوته قائلا لهم مرحبا ، هلموا • وردد وراءه « زوبير » هذه الكلمات ومعه الموسيقيون •

استيقظ « ماهو » فجأة على صيحات الأوزة ، استيقظ وهو لا يعرف الى أين يتجه بقلبه • أيقف بجانب « حور محب » وسلطته ، أم بجانب ما يحبه ويهواه ؟ وسرعان ما انحاز الى قلبه مرددا هتاف الجمهور الذى ينتشر فى الأرجاء صداه نشوانا من هتافات الناس ، كان أخناتون يحث الناس على الاستمرار فى الطريق •

استمرت الرحلة أياما وليالى نحو الشمال فى هدوء • أخذنا نرقب المشاهد ونترصدها • وها هى مصر تزاحم نيلها المتمثل فى مجرى أخضر تحيطه الصحراء المنبسطة والتلال الصفراء •

وترسو السفينة على الشاطىء أحيانا وينزل أخناتون ونفرتيتى على الشاطىء يحيط بهما نفر قليل •

هاأنذا أتابعهما • أدون ملاحظاتى وأنا منحن على الجبال •

أتابعهما وأتابع من حولهما . يجوبان حافة النهر ثم يصعدان ثانية فى القارب لنتابع المسير .

كانت القوارب الصغيرة المكتظة بالناس تفعل مثلنا ثم تفرد أشرعتها من جديد . وقد ظل الجمهور واثقا متريثا ولم يتعجل الأمور متجمعا عند مكان الابحار .

وعلى الضفة اليسرى للنيل ، وفى منتصف الطريق بين طيبة « ممفيس » لاحظت واديا مرتفعا ارتفاعا قليلا على شكل مسرح واسع وكان في وسطه صخور جيرية . وهنا مد اخناتون يده مشيرا بسبابته في اصرار تجاه نصف الدائرة الكبير . لقد تعرف على أرضه ونزل هذه المرة بمفرده .

أخذ يذهب ويجىء مرارا على الشاطىء ثم غاب داخل السهل سائرا تجاه الصخور وما لبث أن اختفى بعيدا .

وأخذ البناءون يناقشون مزايا المكان ووجدوا فى ارتفاعه النسبى حصنا يمنع عن المدينة خطر الفيضان كما وجدوا فيما يحيطه من صخور حاجزا يدرأ عنها رمال الصحراء التى تجلبها الرياح ، كما وجدوا فى هذه الصخور مانعا ضد أخطار اللصوص القادمين من الصحراء . كما لاحظوا أن موقع المكان فى اتجاه الشمال يميزه بطقس معتدل فى الصيف أقل قيظا من صيف طيبة الملتهب .

وعلى الشاطىء المقابل للمكان ، يقبع الوادى الخصب الذى جلبه الغرين . فسوف يجد الشعب قوته اليومى من الغذاء .

وقد تلهف الجميع الى النزول فى المكان ليلحقوا بالعاهل الشاب ، لكن نفرتيتى كانت تمنعهم لمرات متكررة .

« كنت متلهفة أن أترك القارب الشراعى كى أسير فى

السهل وأصل الى أخناتون · لكنى أدركت أنه من الأفضل أن أتركه ونفسه لكى يتفقد المكان بمفرده · وليكون انطباعه عنه · فالوحدة هنا تلزمه ·

وعندما عاد من جولته الطويلة ، قام يمسح الساحل مرة أخرى قبل أن يعود ثانيا ويجلس على صخرة رمادية اللون ، لقد ملأ ظله النحيل هذا المسرح الفسيح المنير · ملأه بحضور غريب فريد · وما تركته عيناى لحظة ·

انحنى فترة طويلة الى الامام واستند بكوعيه ووجهه بين كفيه كما لو كان يسمع الى ضوضاء المدينة الجديدة ، وهى ترتفع فى أعماق ذاته ·

كل شىء هادىء فى القارب · وحتى أسطول القوارب الصغيرة التى تصاحب القارب الملكى ، لم يصدر عنه أية ضوضاء ·

أخيرا نهض أخناتون وأخذ نفسا طويلا · ورغم المسافة التى تفصلنا فهو قريب منى · وتلك حقيقة يدركها تماما ·

وهذه مدينة الأفق بمنشآتها العامة ومعابدها ومنازلها ومنازل عمالها وصناعها وحدائقها ومقابرها ترتفع فى أعماقه · وبعد ذلك ترتفع فى أعماقى وداخلى · وبارتفاعها نرتفع سويا ·

وضحكات الأطفال التى سوف تمتزج بضحكاتنا ترن فى أذنى أرى فى المدينة عجوزا متورد الخدين وهو جالس فى أحد الطرق حيث أشجار الصفصاف تتدلى فروعها · أدفىء يدى مع الآخرين فوق جمر نار الشتاء الموقدة وسط المدينة · وأدخل حديقة فأرى سيدة جميلة تقطف الأزهار ·

عاد « أخناتون » ساعة الغسق وتوجه أول الأمر الى « بك »

وأصدقائه ليبتشيرهم فى أمر المدينة • وقد أبدى النحاتون موافقتهم على المكان قائلين : غدا سننزل من القارب •

أخذ « أخناتون » يدى فى يده واصطحبنى على الرصيف وسرنا تجاه أعماق السهل • سوف نقضى أول ليلة وحدنا هناك تحت أضواء النجوم مفترشين أرض المدينة •

سهرنا ونمنا ثم استيقظنا •

جلس أخناتون أمامى مغلقا عينيه بينما تداعب أنامله الطويلة رموشى ووجهى ووجنتى وأنفى وشفتى كما لو كان يريد أن يتأمل ملامحى بطريقة أخرى غير المشاهدة •

وكنت بدورى أستكشف وجهه • ولم ألبث أن أرحت وجهى فى يديه المبسوطتين والتقى فمه بفمى • والتقى كل شىء فينا بكل شىء • وتوازت حركاتنا وقلبانا وغمرت السعادة جسدينا •

واليوم أيضا تلاشت أشياء كثيرة وابتعدت ، ووقعت أحداث أخرى كثيرة لا يمكن أن تنسى •

وفى تلك اللحظات الحالكة ، بعدما اجتزنا الأزمات ، ظهر ان الاضطراب والضيق غيرا من طبيعة أخناتون ، ولكن عندما حاصره الموت ، كانت هذه درجة أكبر من أية فاجعة أخرى • وهنا لم يستطع شىء أن يغير طبيعته بعد ذلك •

ولم يفارقنى الشعور ، وما زلت أشعر أننا نتعانق متلاصقين حتى أدق أعصابنا ، يطمرنا نفس النسيج الأصلى •

وحتى هذا اليوم يا بوباستوس ، تغمرنى صورة الليلة الأولى التى قضيناها على أرض مدينة الأفق ، ليست كذكرى ولكنها كفيض من اللذة والأمل يسرى قطرة قطرة تحت جلدى •

وعلى أساسات المدينـــة الجـديدة ، كانت الأرض تركن الى الليل مطمئنة وكان كلانا يلتقي بالآخر ٠

يفاجؤنا الفجر بطلعتـه ويســـتقبله أخنـاتون بصيحات فرح وسرور مهللا :

سوف تكونى خالدة الى الأبد ، وسوف نجرى الى ركن قصى حيث حافة النهر المظلمة الرطبة ٠ وحينما يضغط أحدنا بقـــدمه على الأرض الموحلة ويدخل الماء فى نعله يلطخه ، تنطلق ضحكاتنا » .

ولكى يحدد أخنـــاتون مدينة الأفق قام بتحـديد منتصف الدائرة ٠ وأمر بوضع موجز لخطة بناء المدينة على مسلات تحيط بها ٠

وقد شاهدت بعينى هـــذه المخطوطات ٠ وكان الفرعون يملى كلماتها التى شهدت مولدها تحت الجير الأبيض : « هذا هو المكان الذى لا يملكه اله أو أمير ٠ هذا مكان الجميع ٠ هنـــا سوف تملأ الشمس جميع الكون بالحب ٠

وكانت السرعة المحمومة فى انجاز الأعمال تؤثر أحيانا فى درجة دقة البناء الذى اســـتغرق أربعة أعوام ٠ ويمكن القول ان أخطارا كانت تتهدد اقامتها ٠٠ وان كل حجر كان يوضع فى البناء ، كان يقطع الأمل أمام أية محاولة للنيل منه ٠

تزايد الناس وتحمست كل مصر لأفكار الفرعون الشاب ٠ وكان العمال يأتون بالآلاف من مناطق قريبة للمساعدة بأدواتهـم الخاصة ٠ ومن هؤلاء التاجر « نجودو » الذى أتى وفى صحبتـــه آخرون ٠ والجندى « ربادى » ذو المكانة المرموقة والذى اشـــتهر بالشهامة ٠ أتى للمساعدة مع مجموعة من فصيلته ٠

كما نزلت الى الشاطىء كذلك احدى السيدات الطاعنات في السن ومعها شعلة من الصلصال ذات مساء · وكان فى ردائها حجر كبير مربوط على صدرها ·

وكان القادمون على ظهر القارب الملكى من « طيبة » يتعلمون استخدام المعول وكيفية تثبيت القوالب بالمونة · وأذكر ان والدى « أمينو » قال لى : « تعلم هذه الحكمة التى قالها الوزير « حتب »: ينبغى أن تتعلم الأيدى التى تحمل البيرق والعلم كيف تمسك الفأس أو المعول · » وذلك رغم أن أصابع والدى لم تمسك شيئا غير القلم · لهذا بدأت أعمل مع الآخرين فى البناء ·

وكنت أنهار من التعب مع قدوم الليل ، فأدهن جسمى بالزيت والمرهم · وكانت الفائدة من وراء ذلك مؤكدة ·

وقد تم البناء بفضل عزيمة الجميع وتفاهمهم · وكانت الفيضانات تتوالى كل يوم · وكان أخناتون ينتقل من مكان الى آخر ومن مجموعة الى أخرى دون كلل أو تعب ·

وقد ارتبط هذا الحماس بقوى جسمانية ، تفتر بالتدريج ولم يشعر طوال هذه السنين الأربعة بأى أعراض للمرض ·

وارتبط فيه العقل الحازم المتوقد مع حرارة القلب المتحمس ، وظهر انه قادر على الانجاز بعد التصور · فكان يقوم بالتخطيط بمساعدة أصحابه ، ويقيم ويختار بحزم عن دراية ومعرفة لدرجة تدهش المحيطين به · ولم يبدر له أن يغفل أية تفصيلة ولو دقيقة ، كرصيف المشاة ، وطريق العربات وتهوية المدينة فى الصيف حين تكون حرارة الشمس والصحراء شديدة من أجل ألا تشعر المدينة بالاختناق ·

كان يريد أن تنقسم المدينة الى أحياء ، كل حى فيها مجموعة

من المنازل المتجاورة تربط بينها شوارع مستقيمة تسهل السير فيها • ووعد بزراعة أشجار على الطرقات من أجل التنزه • واستقدم أشجار تفاح فى آنية • كما استقدم أشجار اللوز ونباتات أخرى من بلاد شتى •

ولأنه كان يحلم هو وزوجته نفرتيتى بمدينة تتنفس فيها الجدران ، أمر أن ترسم الطيور والأسماك والغزلان يشاكس بعضها البعض وسط رسوم نباتات الوادى • كل هذا على جدران المدينة •

وكان قد أمر بأن تبنى المنازل والقصور بطوب الغرين المحروق فيما عدا النوافذ والأعمدة التى كانت من الحجر • وكان يريد ألا يزيد ارتفاع المنازل على طابق واحد • وان تحيط كل منزل حديقة وكان يريد أن يعيد بناء معبد غير مسقوف متصل بالسماء • كما أمر أن تحفر القبور وسط الصخور •

« تم بناء المدينة خلال أربع سنوات • وقد وفد اليها الكثير من الغرباء للاقامة فيها مما جعلها تشتهر بهذا الاسم « مدينة الأرض » وقد أنجبنا خلال هذه السنين ثلاث بنات هى « ميريه » و « ميكيه » و » أنخيه » •

أمر الفرعون باقامة المعبد وسط المدينة • ولم يكن لحرم المعبد الرئيسى سقف : ولكى نزيد من وقار هذا المكان المقدس ، لم نجعل هناك ساترا تحجب دخول النور • وكانت أصوات كهنة آمون الجنائزية النغم تجعل النساك خائفين مما جعلنا نستبدل هذه الأنغام بصوت « ميرينيه » العادى القريب من اعتقاداتنا • وسوف يصلى كل انسان لكلامه الخاص به •

وقام كبار الكهنة باخفاء آلهتهم فى أوكار ، كما هربوا رجاله فى خبايا الرعب • وصار غموض الحياة هو الغموض الوحيد • وأنصت الى أخناتون اذ يقول :

سر الشمس التى لا تكف عن الظهور ، وسر الدم الذى يجعلنا أحياء ، وسر الشجرة المخضرة ... هو الله ! الحياة ! انه يرى علامة وجود الله فى كل شيء . فى حفيف الأوراق ، فى عجل صغير يجرى ، فى الكتكوت الذى ينقر داخل البيضة ، فى النسيم الذى يملأ الشراع .

تطول الحياة بالخلود ، لكنها تتحرك كذلك فى كل ما هو قابل للفناء . واذا كان الله موجودا ، فهو الحركة والقوة ، وهو محرك العواطف . انه الذى يمر ويبقى . وهو فى الحاضر ، فى المستقبل ، فى الأماكن الأخرى وهو يتجلى فى وجودنا .

ورغم مهام « أخناتون » الضخمة ، فأحيانا يحدثنى ، ويحدثنى كما لو كان يتحدث من أعماق وادى هادىء ، من أعماق السكون ، من داخل فرجة للضوء ، يسمعنى نشيده الذى يتابع كتابته ، ذاك الحديث الذى يتوجه به الى آتون . وعلى عكس ذلك كنت أتذكر نشيدا آخر لتحتمس الثالث . كان ذلك الحديث موجها الى آمون وكانت « سيكى » قد تعلمته من البستانى « شيدو »

« دعست الأعداء بالأقدام

وهم فى الفزع الألم .

أحيى فيك هذا المنتقم

الواقف على ظهر ضحيته ! »

وأنصت الى أخناتون . يبدو كأنه يستمع الى كلمات شعبنا من خلال كلماته هو ، هذا الشعب المتسامح دائما فى أفعاله .

« لقد خلقت كل البسيطة ومن عليها

كل بلد غريب مهما كان موقعه

تجعله كذلك يحيا

حسنك يقبل العالم ويحنو عليه

بحبك توجد الكائنات والأشياء

والناس جميعهم أحياء بفضل ارادتك »

ويصل صوته الى بعيد • وأسمع صداه دائما يوحى بأناشيد أخرى • ذلك الصوت المفعم بالحياة !

فرغ الجميع من أعمال البناء • وخرجت الى الوجود مدينة الأفق وبدأت تدب الحياة فيما كان صحراء بالأمس : الحدائق والمبانى والناس الكثيرون • وها هى المدينة التى انبعثت من حلمنا ، من ألمنا وعرقنا !

وتتجلى سعادتى ، وأركع لأقبل الأرض • ولو استطعت أن أعانق السماء لفعلت لكنها تمانع وتبتعد ! نعم انى أسبح على راحتى فوق سطح المدينة • مدينتى !

انتصبت المدينة بين جدران زاهية الألوان وسط أشجار وشرائط تزين الميادين كالرايات •

أهرب من « سيكى » ومن مفاتن صدرها فأصل الى « مجمع الخطايا وحقيبة الأخطاء » ـ انى أسمعك من هنا يا والدى « أمينو » ـ وتستقبلنى « نوبا » عاملة المجداف بثوب جميل نقضى ساعة • كل يحتضن الآخر • وبعدها أقدم لها هدية صغيرة •

وحينما تلح وتطالب بالمزيد ، أهرب فى الاتجاه الآخر ، وأشغل نفسى بطعام قامت « سيكي » باعداده • أقول لها انك مثل أمى ! • وتحت كل ثدى أم تنام مرضعة • وأتذوق بمتعة لحم سمانة أو سمكة • آكل البصل والثوم •

وبينما يسيء الكل معاملتى • يقولون : لحم جميل يناسبه ضرب السيف ! بطيخ كبير البطن منغمس فى الملذات ! » •

وتنظر سيكى الى فى دهشة !

أرسل الناس مندوبين عنهم من أواسط البحر ومن البلاد المجاورة الى مدينة الأرض من أجل اعلان الولاء للفرعون • وأحيانا ترى طوابير السجناء راكعين أمام أقدام الملك وأياديهم موثوقة الى الظهر ، وبعيدا عن الخسة فى العمل والمعاملة ، كان أخناتون يطلق سراحهم • لهذا وجد كثير من الثائرين السكن والسكينة فى المدينة التى لا أسر فيها ولا تعذيب •

ومن الناحية الأخرى ، كان هناك أمراء متسلطون لايرتضون أن يخالط رجال الدولة ذوى الأصل المتواضع من الناس حتى ان « أبدب » قال لى :

« أنا الذى كان لا يجد الخبز يجد نفسه الآن مستشارا » وكان هذا لا يروق لهؤلاء •

رحل المتطلعون الى التسلط من مدينة الأفق الى طيبة من جديد ولم يستطع هؤلاء التسامح حيال سلوك الأمراء الشبان ولا تجاه الذين يتيح لهم أصلهم الرفيع الحصول على مكاسب وبالرغم من ذلك يتخيلون عنها تقربا الى الشعب ، ورضوا بالقليل وبالتعايش مع الناس •

وبدت لهم السلطة بكل مميزاتها كسبا غاليا ، لذا رأوا أن يلقوا بأنفسهم فى النار دفاعا عنه • وأداروا ظهرهم الى مدينة الأفق ورحلوا الى العاصمة القديمة تغمرهم هذه المفاهيم •

وغالبا ما اختلط بالعامة وأشجع المصارعين والملاكمين ورماة

السهام • كما أتابع المهرجين من الممثلين والذين تبدو تدريباتهم أمرا عاديا بالنسبة لى •

ذات يوم وبينما كنت أقفز مع ايقاع ضربات الطبلة نشوانا من صياح الجمهور ، قفز « سيت » حول رقبتى مرة واحدة ! وكان ذلك اعجابا منه واعلانا منه بالرغبة فى صحبتى دون افتراق • وأخذ يحك خده الملىء بالشعر فى خدى كما التف حول رقبتى فى عناق •

وما كان ينبغى أن ينتهى ما بيننا من مودة حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذى اختفى فيه بين الأطلال وخرائب المدينة • كان يسير على الدوام فى أثرى حتى أن ظلنا كان ظلا واحدا •

وعندما كانت تكسل ذاكرتى عقب الافراط فى الخمر أو على أثر نوبة حزن ، كنت أزاول التمرين على تمثيلية هزلية ، وكان « ستب » يشجعنى بالتصفيق حتى أستعيد توازنى •

وكانت الأميرات الصغيرات تحببن ثعبانى ، وعندما كان هتاف الناس يصل الى مسامع الفرعون وزوجته والى مسامع بناتهما أيضا وهم فى شرفة القصر ، كنت و « ستيب » نختفى وراء الجماهير • وهنا كانت « ميريه » و « ميكيه » تجذبانا الى الصف الأول •

« وحتى أمام العامة من الناس ، يلعب أخناتون مع بناته ، فيجعل « ميريه » تقفز على كتفه ، ويربط « ميكيه » فى غزال يغدو ببطء حوالينا ، ويمسك بالصغيرة « أنخيه » فى ذراعيه ويقبلها دون ملل • ولا شك أنه آسف لعدم انجابى أولادا ذكورا • ولكنه لم يفكر حتى فى مجرد الشكوى من ذلك أو أن يعتب على وأن يبحث عن زوجات أخريات •

وكان بين العامة أيضـــا يحيط خصرى بذراعيه ، ويضمنى اليه . وكان أحيانا يجوب العاصمة بمفرده فى عربته الخاصـــه ومرات أخرى يقوم باصطحابنا . وكانت بناتنا العاريات تستندن على حافة العربة لتحية المارة وهو ينظر الينا . وتلتقى شفانا . وكان البعض يعتب علينـــا ذلك بدعوى اننا نسيىء الى صـــورة الفرعون الالهية . ولكننا كنا نريد هدم الأسوار والحواجز والغاء المسافات !

وكان أخناتون يؤكد أمام « بك » وأمام آخرين من رجـــال الفن على ضرورة القيام برسم صورنا كما نحن على حالتنا الطبيعية ونحن نأكل ، ونشرب ، ونتلاطف . ونحن نتنزه ونتعاطف ... كمـــا هو بوجهه الطـــويل وفخـــذيه العريضتين . ولم يكن يخفى مســـاوىء خلقته . وكان يظهر فى جيب قصـــيرة من التيـــل ونصفه الأعلى بلا ملبس يرتديه :

ولم نكن نرفض المتع التى كان وراءها القلب : تلك الأيادى تبحث عن بعضها ، وتلتقى متشابكة . فهذا ذراع تســـتند على كتف ، ونفس حار قرب الرقبـــة ، وقبلات من الواحد للآخر على الخدود والكوع والمعصم وعلى ركبتى الطفل ...

ولم نحرم أنفسنا من كلمة حب تقال ، فكلمات الحب تهدىء المشاعر وتقوى الأعصاب - أنت التى أحب - ولن أتزوج الا أنت يا نفرتيتى . »

وعلى غير ما كان يفعل أجداد أخناتون ، كان لا يجب أن يكون له بلاطا من الحريم ، وعلى وجه العموم ، كانت الحريم فى بلاط أدنى درجة من الملكة بكل المقـــاييس والأسس ، وكان يجعل من زوجته « نفرتيتى » انسانة مساوية له فى المكانة .

ولا تتضمن كتاباتنا عن النساء واليها كلمات رقيقة . أما المتقدمات في السن اللاتى فقدن صفاتهن الأنثوية ، فكانت وحدهن تجدن اللطف والرقة فى أقلام كتاب الأخبار .

أما الحسناوات فكان يقال لهن : خفيفات ، صاحبات نزوة وكثيرات الكلام ، مفشيات للأسرار وغادرات الطبع ! » .

وعن الرجال نقول انهم مخلصون ، ودودون ، شجعان عقلاء وعظام . كم هم عظام ! وكانت لدى النزعة الى تعظيم الرجال لولا خلافى مع « توتو » الذى أثار غضبى الأخرس ضدهم . وان كان هذا الموقف لم يسبق أن تناوله أحد بالكتابة المستفيضة . لقد فاجأت المدير « توتو » بأنه ليس من الوقار أن تكون عاملة المجداف بين ذراعى « نوبا » ذلك الذى سمعته أيضا وهو يسخر من أخناتون مسفها تصرفاته وسلوكه .

اننا نحن الرجال نملك ميراثا من الحقوق التي ينبغى أن نفكر فيها جيدا وألا نتخلى فجأة عنها ورغم ذلك لم أستغل هذه الحقوق استغلالا سيئا أو حتى أحدها . كما لم أعتقد فى أفضلية جنس الرجال على النساء واستغلالهم لهذه الأفضلية :

« ويمكن لرجل أن يستقدم خليلات فى بيته . ومن حق الرجل الذى يرتقى فى وظيفته أن يطلق زوجته الرقيقة الحال كى تحل محلها من تتلاءم مع حالته الجديدة . وللرجل الحق فى أن يضرب زوجته دون أن يفرط فى ذلك ولو ارتكبت هذه حالة الزنا له أن يعاقبها بالموت . ولو فعل الرجل كما فعلت زوجته لا يكون معرضا لأية عقوبة . وتعتبر المرأة عجوزا اذا بلغت سن الثلاثين . والرجل صالح فى جميع الأعمار » .

وليس من طبيعة عملى أنا ــ بوباستوس ــ أن أنقب تحت الجدران ، والا فلتأتى المرأة لكى تكتب وتكون السبب فى اهتزاز البناء ووجود الخلل فيه . امرأة تكتب ! انها لفكرة مضحكة !

ومع ذلك يبدو أخناتون مصمما على أن يعطى صورة أخرى للزوج والزوجة • وأعترف أننى أحيانا ما أهتز من أعماقى لذلك •

وتقلق هذه التصرفات من جانب الفرعون الأمير « نوتو » وآخرين غيره • ألم يأمر هذا بأن تنقش كلمات مدح لزوجته على أول مسلة فى مدينة الأفق ؟

« أيمكن ان توافق روحى على أن الحبيبة نفرتيتى شاخت بعد العديد من السنين ؟ لسوف تظل الى الأبد : انهـا الجميلة القادمة » •

وصل بحذاء الشاطىء من طيبة قارب الملكة « تى » كان يسير ذلك القارب المهيب بجوار الأرصفة البيضاء اللامعـة الى أن ألقى مرساة أمام مدينة الأفق •

تمر الآن ثمانية أعوام منها أربعة بعد بناء المدينة • ورغم أن ولدها أخناتون لم يكف عن دعوتهـا الى الحضور اليها عن طريق رسله • ورغم انه أقام لها قصرا ومعبدا فى العاصـمة الجديدة الا أنها كانت ترجىء الوصول • وهل تبقى هذه المرة هنا على الدوام عند قدومها ؟

كان الفرعون وحاشيته فى استقبال الملكة أمام الشاطىء • وقف الفرعون ومعه زوجته فى انتظارها ، وكان يرتدى وزرة من التيل • أما زوجته فكانت ترتدى ثوبا خفيفا يداعبه الهواء وحولهما البنات الصغيرات « ميريه » و « ميكيه » و « أنخيه » •

وكنت قد ضفرت شريطين من الزهور ، أحدهمـا من أجلى والآخر من أجل « سنب » ، ولكن الثعبان رفض أن يلبس شريطه ، واضطررت ان ألبس الاثنين معا ، فكنت فى النهاية غريب المظهر

مما جعل « سنب » يظهر انستياءه لذلك • وبدأ يعض ياقتى ويعفر حتى أخلع الشريطين • وأخيرا أمسك بهما وقام بتوزيع زهورهما على الاميرات السعيدات •

وكان الجمهور يقف محموما في انتظار الملكة بطول الشاطىء وخصوصا على الرصيف الذى أعد لهذه المناسبة • ولم تكن الملكة « تى » قد ظهرت من داخل القارب حين كان الوزير الضخم « نخت » يلهث ذهابا وعودة من أجل الاطمئنان على آخـــر الاســتعدادات لاستقبال الملكة •

وكان كبير الكهنة « ميرنيــه » يتحدث مع مندوب الأقاليم « بخورو » كما كانت « سيكى » تجفف دمعها بجوار المدير «لوتى » بينما كان المدير الآخر « توتو » مشغولا فى اعداد الوليمة بعد أن ظل طوال الليل فى أحضان « نوبا » •

وكان القائد « ربادى » يدرب مجموعته على الأعمال المدنية من أجل المساهمة فى تعمير المدينة • ولم يـكن القائد الشـــاب « حور محب » غير موجود فى الاستقبال لأنه كان كثير التنقل على حدود المدينة مشرفا على الحامية • وكنت كثيرا ما اسأل نفسى عنه وعن جماعاته •

كما تقدم الوزير العجوز « رعمس » وهو يتكىء على ذراع النحات « بك » وكان حوله تلاميذه وعماله • وكذلك فعل « آبيه » القائم على أمور التغذية فتقدم لانتظار الملكة على الرصيف •

أما « ماهو » فلم يكن ذات يوم فى حاجـــة الى أن يستحثه « سمون » • فقد وقف جاحظ العينين أسفل الرصيف • وكانت أوزته الحبيسة داخل فناء منزله تصيح صيحات عالية أزعجت الحى كله واستمر الجميع واقفين فى انتظار الملكة « تى » •

وأخيرا ظهرت الملكة « تى » يحيطها رجال البلاط ذوو الملابس المزركشة . وكان وجهها رقيق ورأسها يحتمل بلا عناء شعرها المستعار ، وتاج من الذهب تزينه فصوص لامعة يحلى رأسها . وظل ثوبها متماسكا ، مشدودا مثل شراع شده الريح .

وقد سبقها المبشرون بقدومها وأحاط بها كبار الخدم وحاملو المراوح والمظلات والرايات المصنوعة من الريش . كما تبعها طفلان فى الثامنة من عمرهما هما « سمنخرع » و « نبخرع » . وهما ولدان لاحدى الخليلات اللاتى كانت « الزوجة الكبرى » قد اختارتهن للملك « امينوفيس الثالث » قبل ان يموت بأيام قليلة ثم قامت بتربيتهن فى البلاط . وكانت تلك هى المرة الأولى التى يقابلان فيها أخاهما من الأب « أخناتون » .

وقد أدهش مظهرها الرائع جميع الناس . وكان الصمت جليلا ، مهابا حيث انحنت الظهور وركع الناس كما سجد البعض أمامها .

لكن « أخناتون » وزوجته تجاهلا فجأة كل مظاهر الاستقبال الرسمية وتقدما هرولة وسط بناتهما فاتحى الاذرع العارية حتى مفصل الكوع .

أرض كريمة خرجت بيضاء وخضراء من الصحراء فأدهشت زوارها . لقد تأملتها الملكة « تى » قبل آن تهبط الرصيف ثم قالت : انها كشعاع من السماء !

وبعد ذلك تقدمت وسارت بجوار ولدها أخناتون . سارا فى دروب المدينة المزدانة بشرائط ملونة وأنغام القيثار وأحجار البناء . اصطحبها وسط المبانى ذات المناور وبين آبار المياه المتعددة وأحواض زهرة اللوتس والأنهار العامرة بالأسماك . ثم توقف

بها عند أحد الجداول ودعاها الى الراحة بأحد الاكشاك التى زودها بآنية الخمر مع الطازج من الفواكه ·

وبعد ذلك قامت بزيارة المراسم وورش النحت · وكان « جوهوتى » يشرع ساعتها فى الانتهاء من تمثال لنصفها العلوى صنعة من الحجر الجيرى ·

وأخيرا توجه الجميع الى المأدبة ·

شعر « سنب » حينئذ بدنو اللحظة الممتعة من النهار ، فبدأ يقفز مسرورا وأخذ يلحس يدى · ففعلت كما فعل · ولحقت بنا « سيكى » وهى تحمل الطفلة « أنخيه » على كتفها وأخذت مكانها على المائدة · وقمت أنا بالجلوس أيضا · كما فعل الأخرون لتناول الطعام ·

كان الحكيم « حتب » يقول : « كن سخيا » عندما تقيم وليمة ولا تضع فى الحسبان أن يعود شىء الى مخزن الطعام مما كان قد خرج » ·

كان الطعام كثيرا والشراب أيضا · الزهور تزين المائدة · كان عليها تفاح أحمر لامع وأفخاذ من لحوم البقر غير اللحوم الأخرى مع قطع الخبز والحلوى وتلال الخضر والفواكه ·

ولم يكن ترتيب المائدة غير المنظم يروق للملكة « تى » فقد كان الطعام موضوعا بلا اكتراث أو تكلف ، وكيف يروق لها وهى التى اعتادت على رسميات مدينة « طيبة » تناولت الطعام وتناوله معها كبار رجال الدولة ومندوبو الشعب ·

وكانت « هويا » كبيرة ياوران الملكة الأم « تى » تباشر

المطابخ . كانت تدور حول الخدم وتدور كي تدرك الأخطاء الكثيرة في مأدبة حفل الاستقبال .

أخذت الملكة تراقب طريقة المدعوين والضيوف في تنـاول الطعام ثم مالبثت ان فعلت مثلما يفعلون كالغريب الذى قدم على قوم وأخذ يأكل كما يأكلون . وهاهى تقلد الملكة نفرتيتي وهى تمسك « بطة » محمرة لتأكل منها . ثم أخذت سمانة وأخذت منها ملء فمها . أما أخناتون فقد قطع بفمه آخر قطعة من اللحم . بينما كانت الطفلة « ميكيه » تنتقل على أرجل الجالسين ثم شرب الجميع الخمر بعد ذلك .

ولم يجد أى من « سـمنخرع » و « نبخرع » صعوبة في الاشتراك في المأدبة ولا الفتاتين الأميرتين كذلك . وكانت « هويا » تهز رأسها .

وأثناء تناول الطعام ، كانت الفرقة الموسيقية تعزف نغما هادئا . وكان « جونى » مأخوذا بهذا المشهد ، فأخذ يرسـم « اسكتشا » لما يدور أمامه بينما كان جالسا في أحد زوايا الحجرة . وكان يقوم بالرسم على ألواح خزفية .

« وفى اليوم التالى ، اصطحب أخناتون والدته الملكة « تى » الى المعبد . وكان قد أشرف بنفسه على سير الأعمال فيه ، مدققا فى كل صغيرة تتعلق بالمقبرة الملكية . وكان يكتم سر هذه المقبرة ليكون الأمر مفاجأة يسعد بها والدته .

وكان كذلك قد أمر باقامة تمثال لكل من الملكة الوالدة « تى » وزوجها امينوفيس الثالث وأمر بأن يوضـعا بين أعمدة المعبد الخارجية .

وأمام المعبد ، توقفت الملكة وولدها اخناتون وفى صحبة « آنيه » مشرف التموين الذى كان يتطلع الى لقاء الملكة وبعض رجال الحاشية • ثم دخل الجميع المعبد • وكنت كذلك معهم •

وكان على المدير « توتو » أن يمنع الناس من تجاوز السور أما « هويا » فكان قلقا منفعلا خشية الا تروق « مدينة الأفق » لمزاج الملكة فتقرر عدم الاقامة فيها •

ومنذ الليلة الماضية ، اتجه « سمنخرع » ، « نبخرع » الى المدينة حيث تغير سلوكهما فجأة • كانا يجريان مع أطفال مختلفة الأعمار • يكتشفان الشوارع ويختبئان فى عريش الأكواخ • كانا يلعبان مع الكلاب والغزلان ويسبحان مع الأميرات الصغيرات فى الماء •

اندهش أغلب سكان « طيبة » لجمال المعبد • لكنهم لم يستريحوا للسلوك العام أثناء الاحتفال • ووقفوا ينتظرون ملكتهم أمام سور المعبد حتى تخرج •

وضع أخناتون يده فى يد والدته ، ويده الأخرى فى يدى وسار ثلاثتنا فى الطريق الى الأماكن المقدسة الى أن وصلنا الى المزار المقدس • وهناك عند القربان كانت حباب البخور تحترق ، ولا شىء على الجدران غير آثار الشمس المشرقة •

ولم يقم الملك أية شعيرة ولم ينطق بأية صلاة • وكل ما فعله هو أنه انحنى برأسه انحناءة خفيفة • كل شىء صامت •

ويرفع الملك وجهه نحو السماء التى تدخل كلها المعبد بلا تحفظ أو قيود ويبتسم • فأتصور ضربات قلبه حين يفكر فى

أن يقدم حلمه الذى حققه الى والدته • ذلك البناء الذى شـــيده وحققه ولم يكن غير أمل بالنسبة له •

العاطفة العمياء هى أخنـــاتون • وفى هـــذا المكان ، تصير الأشياء غير الأشياء • فمنذ ان دخلت الملكة المعبد ، أخذت تطالب بشعائر تعبدية دينية كدليل على عظمة الاله • هذه السماء التى تدخل المعبـد حتى مكان المذبح بلا حجـاب ، ينبغى آن تبدو له قريبة جدا من الأرض والى أقصى الحدود •

أراها تتكوم ، فتتناقص قامتها ، أراها وقد أنهكها الزمان وأرى رأسها تتحرك ببطء غير ملحوظ •

أراها هكذا وأخناتون لايدرك شيئا من هذا ولا يحسه حتى هذه اللحظة ، وأرى سـعادته الغامرة بما اسـتطاع ان يحققه • وفجأة يتجه نحوها فيرى وجهها المتجهم وتصيح فجأة : أريد أن أدفن فى طيبة •

وهكذا لايمـد أخنـــاتون ما يقوله ردا على هذه الصيحة • وكل ما قاله هو انه ليس فى غنى عن مواعظها •

كان من قبـل ، يندفع بحماس نحو المستقبل ، والآن كى يتراجع عن الطريق عليه أن يبذل الجهد • وهاهى تلح مؤكدة من جديد : عليك أن تقسم رسميا بأنك سوف تعمل على أن أدفن فى طيبة بجوار أبيك « أمينوفيس الثالث » •

هذا ماقالته له فى الوقت الذى كان فيه يأمل ويتطلع إلى نقل رفات والده الى مدينة الأفق • وكان مندهشا حتى انه أخذ يتساءل : ألم يعجبها التمثالان القائمان فى المدخل ؟ ويصفر لون الملك فأخشى أن تخونه ضربات قلبه وأن يســـقط على الأرض •

وهاهو لايقـــدر أن يرخى شفتيه المزمومتين وأمه الملكة تنتظر الاجابة وهى تقول : أقسم لى بذلك ٠

ثم تتجه الى تتلمس مؤازرتى لها ٠

أعرف أنه لايريد أن يقف أمام رغبـة والدته الملكة ، كما أعرف أنه لابد أن تتـــاح له الفرصـة كى يقبل لها وأن يتفهم ٠ فأنتظر وعيناى تحدقان فيه ٠

ويرد قائلا لها : ســتكونى فى أيدى كبار الكهنـة وتحت سيطرتهم لو رجعت الى طيبة ٠ فتقول : انى لا أخشى كبار الكهنة مثلما أخشاك ٠ وبالرغم من ذلك لابد من الاعتماد عليهم أستمع الى يا ولدى ٠٠ هل تستطيع أن تفهمنى ؟

ويومىء برأسه موافقا ٠

ـ فى مدينتك هذه ، سوف يأسف كثير من المصريين على معتقدات أجدادهم ٠ وسوف يرتبطون دائما بآلهتهم ٠ ومن الواجب على أن أحذرك من القلاقل التى تجلبها لك مفاهيم الدين الجديد ٠ انهم يطرقون اسم آمون على جدران المعادن فى الأقاليم ٠ وينزلون فى المقابر ليسجلوا اسمه بعلامات بارزة ٠

فيرد قائلا : وأنا لم أرد ذلك أو أوافق عليه ! فتقول :

ان عالمك ليس من هذا الوجود ، وحتى مؤيدوك لا يستطيعون فهم أفكارك ٠٠

ومع أن أخناتون لايوافق على أنصـــاف الحلول ، تجده يمارس الرحمة والتسامح حيال من يعبدون الاله القديم ٠ وهو يريد أن تســتمد سلطته من حرية الناس لهذا فهو يمقت المتشــددين والمتعصبين من أتباعه ٠

دعنى أقول أيضا : من يستطيع أن يفهم المعاملة الرقيقة التى يعامل بها الجميع ؟ ان مظهرك وتصرفاتك لايفرقانك عن العامة . وينبغي أن يرفع الشعب ناظريه الى السماء كي يخاطبك فحين تكون مثله تنقص من قدرك وتشوه صورتك . فيقول أخناتون لأمه :

عن أية صورة تتحدثين يا أماه ؟ .

- على الملك ان يحافظ على وقاره الالهى وعلى قدسيته .

- وجه الاله في كل مكان .

فتقول : انك تسير نحو الهاوية . وسوف تحطم كل شيء . يرد قائلا :

اصبرى يا أمى ، كل شيء يسير كما كان . ومع الصبر ومسيرة الزمان تتبلور الأفكار وتصير مفهومة .

- ويرتفع صوت الملكة ولا تستطيع التحكم في نبرته . فأقترب منها وآخذ بيدها . فاستاءت من ذلك والقت الى بنظرة حادة وهي تؤكد من جديد :

لقد سادت الأقاليم روح الاستياء . كل الأقاليم . وبدأ الأمراء يسخرون بأن الأعداء يهددون حدودهم لأنهم يشعرون بانه لم تعد هناك قوة تساندهم لها شأنها .

والامبراطورية ثائرة متذمرة .. وتستطرد قائلة :

كان الفرعون فيما مضى يكتفي بارسال احدى فصائل قواته ، فتنزل العقاب بالمتمردين . وكان هذا كافيا كي يستتب النظام .

فيقول الفرعون أخناتون : أنا شخصيا أكره اللجوء الى العنف وأتمنى أن يسود السلام البلاد . فترد قائلة :

أفق مما أنت فيه يا ولدى ! هل تعرف أن الأمير العمورى « عزيرو » فى علاقات طيبة مع الحيثيين ؟ أتعلم أنه يدعى أنك لاتستجيب الى طلباته على الاطلاق وأنك تكتفى بارسال النصائح اليه بأن يكون لطيفا يحسن المعاملة وأن لا جدوى من هذه النصائح انه يسخر منك يا ولدى ولا تناسبه اللهجة التى تعامله بها ٠

وكان أخناتون يسكت ولا يرد

ــ استمع الى نصيحتى يا ولدى ، واحذر « عزيرو » وغيره كثير ٠ ثم ارتفع صوتها فجأة وصار يصل الى السماء ، كما ارتفعت دقات قلبها وقالت بنبرة حادة عالية :

انى أخشاك وأخافك لأنك تسير الى الهاوية ٠ ويسود صمت رهيب ٠

وأحست الملكة « تى » أن كلامها سيكون منذ هذا الوقت بلا جدوى ، وان أخناتون وأتباعه سيصطدمون بجدار الواقع الأليم ٠

وها هو يخرج من فتور الظاهر ويتجه نحو والدته ، ويحيط كتفيها بذراعه ثم ينحنى مقبلا وجنتها قائلا : اهدئى يا أمى ٠ سوف تدفنين فى طيبة كما تشائين ٠

ولم تطلب الملكة شيئا آخر من ولدها ٠ كانت تعرف أن ولدها سيظل ثابتا فى رأيه لايحيد عنه ٠

تفرق جميع الناس الذين كانوا أمام المعبد ٠ وكنت وحدى مع نفر قليل أمام السور حين ظهرت الملكة « تى » بجوار ولدها وزوجه نفرتيتى ٠

وحتى تلك الليلة ، لم يكن الأب « ايبه » قد تم له لقاء

الملكة « تى » لذلك كان يترقب ظهـــورها • وحين رآها وتقدم نحـوها ، لم تلبث ان ســـألته عن الطفلين • وأردفت قائلة : انها لاتسنطيع البقاء أكثر من ذلك لأن وراءها مهام تنتظرها فى طيبة وأنها سترحل صبيحة اليوم التالى •

وحينما سمع « هويا » هذا الخبر أحس بالسعادة وهرول مسرعا ليخبر بعض رجال البلاط الذين كانوا يتشككون فى عودتها الى « طيبة » وكان القلق قد استبد بهم بهذا الشـــأن • فكانوا يخشون أن تقرر البقاء فى مدينـــة الأفق وان تستجيب لأفكار ولدها الملك الشاب •

قاموا يبحثون عن « سمنخرع » و « بنخرع » • كانا يلهوان فى أنحاء المدينة منذ الصـــباح الباكر • وكانت معهمـــا كذلك الأميرتان الصغيرتان • كما لحق بهما أطفـــال آخرون • وقد جرى وراءهما الوزير الضخم « نخت » وهو يلهث • وتوسل الى أن أقوم مقامه بهذه المهمة الشاقة • وقد قمت بها خير قيام و « سنب » فى سروالى •

لقد أطلق الفتيان السهام وتدربا على المصارعة بالأيدى • وكنت و « سنب » على كتفى نستمتع بهذه المباريات ، والثعبان يضرب راحته المجعدة فى أكف الصغيرتين الملساء •

كما طلبوا منى جميعا أن أعيرهم أدوات الكتابة • وحيث أنهم ينتمون الى الأسرة الملكية ، فقد كان لهم الحق فى لوح من العـاج لكنهم لم يتأففوا من اللوح الخشبى الذى أكتب عليه • كما أنهم لم يحتقروا أقلامى • تلك الأقلام التى قمت باعدادها من البوص النيلى أمامهم لكى أشكلها أقلاما خطها صغير • وقاموا بغمس هذه الأقلام فى الوانى المصنوعة من الصلصال الأحمر والســـخام • وقد رسموا جميعا • الواحد تلو الآخر •

ثم رحلوا بعد ذلك يجرون نحو ألعـاب أخرى • وكان مع « نبخرع » حجر غريب يخرج منه الشرر • ولشدة اعجابه به ، كثيرا ما أعلن انه سوف يحمله معه الى مقبرته • وكان يقول :

حقـا ! هذا الشيء الرمادى الخشن يضـــاف الى الثروات الخيالية التى يجب أن يدخرها « توت عنخ آمون » •

وكان أخناتون يتمنى أن يبقى أخويه الصغيرين فى « مدينة الأفق » ولكن « آييه » أخبره انه بالاتفاق مع الملكة « تى » سوف يقوم بتعليمهما فى « طيبة » •

وبينما نحن متجهون الى القصر اصطدم بنا الطفلان • لم يكن أى منهما يريد الرحيل الى طيبة •

واتجهت الملكة « تى » نحو أخناتون وقالت سأكـون وحدى •

ولم يستطع الفرعون المقاومة أمام آلام الأم فقال :

ـ سيكون ماتريدين • ولكن ينبغى أن تتركى أحد الاثنين معنا • وسرعان ما قاطعته بقولها : أنت يا سمنخرع ستبقى هنا • وهنـــا بكى الأميران الصغيران حيث لم يسبق لهما ان افترقا •

فقالت الأم : لا أستطيع البقاء بلا ولد • والا فمن ســـوف يحمينى من شيخوختى ؟

وبصوت منخفض ، كانت تتكلم الى « نبخرع » فاستسلم الطفل مقتنعا بما قالته • ثم قالت :

ان « آييه » سيعود معهما الى « طيبة » وسيهتم بشئونه • واقتربت « ميرينيه » قائلة : سوف آتى الى « طيبة » ذات

يوم · فربت على شعرها « آييه » قائلا : نعم · ستأتين الى طيبة مع « سمنخرع » فيما بعد ·

وتبحر الملكة « تى » فى اليـــوم التالى مع اشراقة الصباح وقد حدثت تغيرات غريبة حول القارب الملكى · فقد قرر كثيرون من أهل طيبة أن يبقوا فى مدينة الأفق بينما رجع الكثير الى العاصمة الجديدة ·

ولم يكن الشاطئ يوم رحيل الملكة مثلما كان يوم وصولها الذى كان يوحى بالانتصار والنشوة · أما اليـوم فهو خال من جماهير الناس كالصحراء · وأقف بالقرب من الرصيف الهادى ، دونما شىء يوحى بالبهجة · وحتى « سنب » حزن لذلك وتمدد على الأرض مخفيا رأسه وهو يتأوه تحت شجيرة زهرها أبيض · ومن الزورق لوحت الملكة بيدها تجاهنا فى حركة سريعـة ثم اختجبت عن الأنظار ·

وقد وقف أخناتون وزوجته بدون أطفالهما · وقفـــا فى انهيار وحزن حتى أن حالهما كان مبعثا لآلامى العميقة ·

واستمرت نبوءات الملكة « تى » المتشـائمة فى الوضـــوح بجلاء · الزمن يتقلص والقارب يتعلق بحـــافة النهر ، ثم تبتعد أشرعته رويدا رويدا حتى تختفى فى النهـــاية · ويغيب قائد الشراع ويزداد بعدا ، ويترك وراءه خطوطا من الميـاه القاتمة · وكان هذا أثرا ينساب طافيا تجاه طيبة · ثم صار بعد ذلك نقطـة تصعد فى النهر تجاه هذه المدينة ·

وعلى الشاطىء وقفت نفرتيتى وأخناتون معهـــا فى تحجر مخيف · وترددت يداهما فى اللقاء قبل أن تلتقيا · ورغـم هذا يقول من يراهما أنهما ليسا الا جسدا واحدا ·

ومازال « سنب » يتألم عند قدمى .

الحياة تسير ، وتنبعث الحيوية فى أحجار المدينة ، وتمتلىء القلوب بالحماس الدافىء . وتستمر مدينة الأفق فى النمو والازدهار بفضل نشاط الناس فيها . ويردد الحكيم رعمس قوله : « لاتترك خلفك أحدا فى مجرى النهر وأنت فى القلوب مبتهجا » . وعلى الساحل الآخر للنهر لم يترك هنا انسان .

نسى « سمنخرع » مدينة طيبة ، كما نسى أخاه « نبخرع » الذى عاش فيها بعد ذلك . ولم يفارق الأميرة « ميريه » قط . وتبددت كلمات الملكة التى تنطوى على التشاؤم . ونسيها الشعب ولم يبق فى ذاكرته غير زيارتها ذات الأثر العظيم الجليل .

ومع ذلك استشرى فى المدينة سرا عدم الارتياح ، واستطعت أن أستشف مظاهر هذه الكآبة من تصرفات الناس . فقد عثرت ذات يوم على كمية كبيرة من الصلصال عند أحد الرؤساء وكذلك على رسوم للثعابين ترمز الى أفراد الأسرة المالكة بصورة كاريكاتيرية واضحة . ووجدت بعد ذلك رسوما على نفس الطريقة فى مكانين آخرين ، وهى توحى الى من يتأملها بالسخرية . وربما يرى فيها رمزا للسخرية أو العصيان الصامت .

وكان اخناتون يطلب من رجال الفن أن يقوموا برسم الأشخاص بلا أى تجاوزات . ولم يكن يريد أن يخفى مساوىء خلقته عن أحد : ساقيه النحيفتين وركبتيه العريضتين وبطنه المتدلية وذقنه الطويل . وكان البعض يفرط فى اظهار هذه الملامح، وربما وجدوا فيها دليلا على نوع آخر من الكمال .

كنت أحب فمه ذا الشفة المنتفخة الذواقة ، عينيه الغائرتين اللتين تتسعان لرؤية العالم . وحينما كنت أغوص فى نظرته ،

كنت أخرج من نطاق جسدى لأسبح فى أعماق نهر عظيم • ويكفى أن أغلق جفونى يا بوباستوس لأجد هذه المياه من جديد •

ففى مياه نظرته يبدو العشب والحجر ، كما تبدو الحياة والمـوت وكذلك المـاضى والمسـتقبل ، يبدون جميعـا كأنهم شىء واحد •

وبعد مدة من زيارة الملكة « تى » وضعت صغيرتى « باكية »• وكانت كل بناتى تشبهن أباهن الى حد كبير فيما عدا ابنتى الثالثة .

كانت السعادة هناك فى مدينتنا ! السعادة ••

وان الشفاه لتعبر عن هذه الكلمة بصعوبة بالغة ولكن ما هو الاسم الذى كانت تلوكه ألسـنتنا ؟ ماذا أقول وكيف أصـف السعادة •

•• واليوم أيضا كذلك ، يصل بى الأمر الى أن أحيى ما كان يحدث رغم هذه التحولات • كما أجدنى كذلك فى بعض الأحيـان وأنا أصيح تجـاه شمس للأزمان الغابرة فى مدينتنـا المتهدمة المسلوبة وفوق أطلال الحاضر ، أصيح كذلك تجاه مدينتنا البعيدة فى أعماق الزمان • وأصيح كذلك فى اتجاه مدن أخرى بعيدة ، موغلة فى القدم •

وأحيانا أخرى كان الغضب ينتابنى • وكانت وجوه الرجال تبدو مخربة ، مجرحة ، غامضة •

وهاهى « الانسانية » تبدو وفجأة كلمة فارغة من المعانى غير ذلك المعنى الذى نريده لها • ويبدو لى الأمل غير جدير بالعقل المستنير • لذلك افتقده • وحينئذ أقول لنفسى : لا يمكن للمرء ان ينتظر من الناس شيئا •• عدا بعض التوقدات التى تمهـد

الطريق الى الضياء والتى تسبق السقوط فى الهاوية العميقة ، والتى تنبىء كذلك بالظلمات المرعبة ٠

وبعد ذلك ورغما عنى تقريبـــا ، يولد الأمل من جديد ٠ وهل ياترى يكون في هذا شكل من أشكال الخوف ؟ وهل في هذا اتجاه الى التراجع ، اتجاه الى خداع النفس ومواساتها ؟ أم هو بالاحرى اعتراف عادل بالصراع الأبدى بين الظلال والنور الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بين الانسان ؟

لقد أحسست بالمزيد من الذعر ، لكنه ذعر يضيؤه الأمل ٠ وعشت هذه التمزقات ، لكنني عشت كذلك الحب الكبير ٠ لقـد قاسينا وعانينا من الخيانة وروح التخريب والضغينة ، لكننـــا شهدنا أعمالا كثيرة تجعلنا نتصالح مع الحياة والوجود ٠

ولهذا أيها الكاتب « بوباستوس » ورغم أن مشروعنا صار خربا وفى حكم العدم ، فانه يحدث لى أن أعثر على ايمان بأمر بعيد يتفلت منا ، فى أزمان أخرى وفى حياة أخرى ٠

ورغم وصايا الملكة « تى » استمر « أخناتون » الملك وزوجته الشابة نفرتيتى فى السير عبر شوارع المدينة وهو واقف فى عربته يحتضن زوجته وهى تحتضنه تماما مثلما كانا يفعلان من قبل ٠

وكان حبهما الذى رآه الجميع يؤكد ثقـــة كل منهما فى منزلة هذه المدينة الوليدة وفى مصيرها ٠ تلك المدينة التى هى نتاج تفاهمهما ٠ وكان الشعب يتعرف على نفسه من خلال سعادة الزوجين وتحمسهما للحياة ومن خـــلال وقارهما وهودئهما فى الحيـــاة ٠

وكانت النسوة تباركن هـــذا المشـــهد ٠ ورغم أن النساء

المصريات تتمتعن بالحرية أكثر من نساء الحضارات الأخرى ، فإن واحدة منهن لم تشترك فى حياة زوجها الخاصة بمثل هذه الدرجة البالغة كما تشترك الآن نفرتيتى • لهذا أخذت كل امرأة مصرية تعتبر نفسها رفيعة القدر والمنزلة قياسا الى المكانة التى تتمتع بها زوجة الفرعون فى نظره •

من أجل هذا اتخذت ما من شـأنه أن يحدث هذا التغيير بالتدريج وذلك رغم أحكام السلف الجائرة حيال الجنس الآخر •

لقد وجدت الملكة حتسبشسوت أنه لكى تكون جديرة بالحكم والاستمرار فيه ، وجدت انه لابد لها من أن تمارس الحكم فى ظل النضـال الدائم •• فارتدت ملابس الرجال ووضعت اللحيـة • واستخدمت سلاح القوة والفتوة والهجوم تماما كما يفعل الرجال•

والآن ، ماذا تفعـل الملكة « تى » ؟ تلك المتملقة المخادعة الغضوب المشاكسة الماكرة ذات الفكر الضحـل • أليست أسيرة لمزاجها الفريد الذى تمكن منها وسخرها لتلعب هذا الدور من وراء الكواليس ، ذلك الدور الذى يسند فى العادة الى الوصيفات ؟ انه دور يتمثل فى اثارة المؤامرات وتدبيرها ؛ وكشـفها من أجـل مناصرة الابن أو الزوج وذلك فى الوقت الذى يقوم فيـه بخداع هذا الابن أو الزوج •

لا وجه للشبه فى هذا المقام • كان أخناتون يحب نفرتيتى لما كانت عليه من اتزان الشخصية • كان يريدها هى ولذاتها •

وكانت هى الأخرى الرقيقة التى لا يجب افسادها • وكان أخناتون فى حاجة الى زوجة لها نفس صفاته وامكاناته ، ومغايرة له فى نفس الوقت حتى يجد للحياة معنى • فكانا يستقبلان الرعايا سويا • وكان الواحد يحل محل الآخر حسب الظروف والأحوال •

كانا يسيران للنزهة والأيدى متشابكة • كانا يجلسان جنبا الى جنب في الاحتفالات • وبهذا كان الفرعون يعمـل على استحداث عرف جديد في هذا المجال وكذلك فى المجالات الأخرى •

وكنت أحيانا أرافق الملكة نفرتيتى أو الملك أخنـــاتون الى الورش • كانا يمتدحان ما يعرض عليهما من الأعمال ويطلبـــان المزيد • كانا يناقشان الفنانين والصناع فى تلك الأعمال • وقد تجرد الفن فى هذه المدينة من أية قاعدة ، كما ان الحياة فيهـــا أصبحت لاتخضع للقواعد •

وهجر الفن ماكان عليه من الجمود والأصالة ، وبدت روح الانتعاش والحركة تسرى فى دمائه • وأصبح العشب المتشابك وأشـجار الكروم الملتوية وكذلك كآبة الوجـه وما الى ذلك من المظاهر ، أصبح كل هذا يقدم مادته الجماليـة للفن • وقد بلغ النقش البارز المجسم كما لا تختلف درجاته •

ووجد الجسم مكانه الدافىء الواقعي فى كل مكان وسكنت الروح الأرض •

وقد رأيت « جيهوتى » وهو يفرغ من نحت رأس تمثال من الحجر الجيرى تعلوها تسريحة شــعر « شنيون » • وتحت أى الأنقـاض مدفونة تلك الكنوز هذه الأيـام ؟ هل ستراها العيون ذات يوم ؟

وشاهدت ذات يوم مولد ملامح الملكة نخت ازميل « يك » أعظم المثالين على الاطلاق •

وكان « بك » يكبر الملك وزوجته بحوالى اثنى عشر عاما • وكان وجهه المتناسق يتمتع بجمال هادىء • وقد بدأ الشـــيب

يغزو شعر صدغيه • وقد أوقف حبه الكامل للفرعون وزوجتـه نفرتيتي •

وكانت الصغيرة « باكية » قد ولدت بعد أن بلغت الملكة عامها الثلاثين أيام الاحتفالات • وفي هذه الأيام وحين تأمل ذلك الوجه الذي مرت عليه عشرون سنة أخرى ، أجد جمال الماضي وقد بدأت تظهر عليه بعض التجاعيد • كما ظهرت حول عينيها هالات زرقاء مع انتفاخ حدقة العين ، كما أجد الرقبـــة أقل تماسكا • وغالبا ما تنظر الملكة بدون تكبر في حركة تتميز بالأنوثة الفتية • تنظر الى أعلى كي تتنفس الهواء العليل •

قبل ذلك ، وأيام كان « بك » ينحت لها التمثال ، كانت هناك دائرة حول عينها اليسرى تتمثل في انتفـاخ بسيط حـول تلك العين • وكان ذلك مرضا شائعا • وكانت مضاعفاته وآثاره بطيئة في الظهور لكنها في نفس الوقت خبيثة • وقد جعلت هذه الاصابة جمالها أكثر رقة وجاذبيـــة • وقد أحسست شخصيا بأن « بك » نفسه كان متأثرا لذلك •

وكان تقابل كل من التمثال وصاحبته نفرتيتي يهز مشاعري كثيرا • كان هذا يشذب الصلصال ويرققـه • ثم يغلق عينيـه ويترك أدواته • وبعد ذلك كان يتحسس جبينها طويلا وخدودها وفمها بأصابعه • كان يحـــاول أن يوقظ في هذه المادة الجامدة خفقـــات الجسم الحي ، واهتزاز الكائن الحي ودفء الدماء • كان يحاول أن يحس بملمس بشرتها اللذيذ •

وكان وجه الملكة قد تعرى فجأة •

أما عن الملكة نفرتيتي ، فكانت نظرتها تتابع كل لمساته •

كانت ترتعش لرؤية هذه الأصـــابع النشطة اليقظة التى تجوب ذهابا وعودة وجهها المكشوف .

هل أقول من عندى شـــيئا بهذه الكلمــات ؟ أليست هذه الأوصاف والانفعالات هي أوصافي وانفعالاتي فى بعض الأحيان ؟ أليست هذه الكلمات كذلك كلمات عقل أفســده الخيال ؟ وهل ياترى أقدم الى قلوب الآخرين وعقولهم ما يحسه قلبى ويحدث به لسانى أنا وحدى ؟

ومع ذلك ، فقد أجهــدت نفسى ــ وشرف مينو ! وليشـــهد والدى أمينو على صحة هذه الكلمات ودقتها . أجهدت نفسى كى أظل أمينا فى تسجيل التاريخ وكتابته . ولكنى ورغما عنى أتهرب من ذلك أحيانا ، فيتسرب جوهرى وتظهر ذاتى بين الكلمات رغما عنى . وعليك أيهــا القارىء ان تنتخب وان تميز ما يبعث الى الريبة والشك .

وهناك فى المستقبل البعيد يا أخى القارىء ــ وبهذا أحب أن أسميك ــ لو تصـــادف أن أفلتت هذا التقرير من الغرق والفناء والنسيان ، تذكر ــ وقد أنبأتك بهذا عند فاتحة هذه المذكرات ــ تذكر انها ستصل اليك وقد أصابها التلف أو التغيير ، لأنه ينبغى ان تدرك أن هذا المخطوط سوف ينتقل من يد كاتب الى يد كاتب آخر قبل أن يصل لتقرأه بين يديك ، وأن بعض التعديلات سوف تعتريه كل مرة ولو بدرجــة بســـيطة . وأنه ســوف يعبر قرونا وقرونا ، وسوف يتنــاوله كل واحــد وفق مفاهيم جديدة بدون أدنى شك .

وثق أيهـــا الصديق فى كلامى هذا ، فذلك ما يحدث فى قلوب الرجال العامرة بالايمان : هذه ليست قصة خرافية . انها

حقيقة واقعة • وان كنت أحكيهـا لك أمرا حدث فى الحقيقة ، ذلك لأن حقيقة مدينة الأفق ينبغى ان تؤثر فى ذاتك أنت أيها القارىء • قارىء كل مكان وزمان دون أى اعتبار للطريقة التى سوف يسردها لك الكتاب •

وان هذا الاقتناع من جانبى ، ليساعدنى على المثابرة على أن أتم هذه الوقائع التاريخية • استمع الى ما أقول ••

ها أنذا فى ورشـة « بك » وقد أكدت على الملكة أن أبقى بالقرب منها فى هذه الأيام خلال جلسات العمل مع المثال •

أترك « سنب » عند الباب مربوطا فى حبله • ولأنه مرح ظريف ، فسوف يعيش فى جميع الأرجاء ، وسوف ينقل الأشياء من مكانها حسب هواه • أحاول ان أكون رجلا مفيدا • فأقوم بازاحة الغبار من فوق التماثيل الصغيرة المجهزة من الصلصال المحروق • أبلل قطع الفخار ، أنظف الأدوات وأفركها أو أسكت •

وأبقى لساعات ثابتا متكورا مثل رغيف خـرج من الفرن •

أبقى منحنيا على مقعد من الجرانيت ؛

ـ سوف أجعلك خالدا يا بوباستوس ذات يوم !

ـ مع سنب ؟

ـ مع سنب •

وحدث ذلك بالفعل بعد مدة قصيرة • لقد كلف « بك » أحد تلاميذه بأن يعيد تجسيدى فى وضع الكاتب على قاعدة مزخرفة • فقام هذا ينحت هيئتى عند أقدام موكب من الموسيقيـات ذات السيقان القافزة الواثبة ، ومعى لوحى وفيه آنية الحبر على ركبتى وأقلامى الثلاثة خلف أذنى • وكان « سنب » فى الطرف الآخر من

الافريز • يقظ كأحد الآلهة • وضاعت صورتى فى صحبة « سنب » والموسيقيات !

مخبرة الآن ومبعثرة ، تلك المطبوعات الحجرية ، .ومنهـــا ما هو مدفون فى الرمال ، يا جامعو الكروم ، يا أيهـــا الصيادون ويا من تحصدون القمح ! وكما ابتلعت أسراب طيور الترغلة تلال الأسماك ، وكما قضى على قطعان الأوز والنعاج ، ها هى الآن كذلك تلك الأعمدة ، لقد انهارت وانهارت معها أقراص الشمس ، وتلك الوجوه الملكية كذلك •

« شيدت مدينة الأفق ومع كل هذا كنا نسعى الى تجميلها وتطويرها • وكانت السعادة مرتسمة على وجوه سكانها • وكانت القوانين سهلة غير صارمة • وكنا نرى فيها الاقتراب من الكمال » •

وكان أخناتون يريد أن يكون التعليم فى متناول الجميع • كان يرى أن التقدم والتطور أمران ضروريان للمرء من أجل ان تعم الفائدة جميع الناس فى النهاية •

كان ينهض مع الفجر ويستمر فى كتابة نشيده للشمس على ورقة البردى • وهناك فى ســـاعة الغسق ، كان يسمعنى بعض السطور :

« أشعتك فى كل الوجود

على الماشية والمراعى

على الطائر والمخلوق

على كل قارب يطفو فوق النهر

حتى يصل الى البحر العظيم

انك ايتها الشمس

لتبددين الظلمات

عندما تشرقين

ينهض الرجـال

من أجل مسيرة الحياة !

وكان الناس يتنزهون فى الحدائق العامة ، ويتناقشون فى الميادين • كان الشعب يتحرك والحيوية تغمره • وكانت الشوارع تزدحم فى جميع الأوقات •

وكان الأطفال والنساء والرجـال من جميع الأعمار ، وحتى الغرباء والأجانب القادمون اليها فى أعداد كبيرة ، كان كل هؤلاء يحبون هذه المدينة ويعملون فيها • وكانوا يتجولون فى جميـع أرجائها •

وبعد ذلك كنت أذهب بمفردى وبناتى فى ورشـة « بك » كنت أجدنى هناك • ومع ذلك لا أجدنى فى ذلك الوجه الذى يولد من بين يديه • وأحيانا كان « بك » يتوقف عن العمـل ويغلق عينيه • وكانت أصابعه تمر بطـول الرقبـة والذقن والشفتين والصـدغين • كانت أصـابعه تجس كـل جزء من هذه البشرة الصلصالية •

أما وقد انتهى كل شىء ، وأن نهايتى قد اقتربت ، فـانى أكشف نفسى أمامك ايها الكاتب • أنسلخ من كل شىء حتى من هذا الارتباك والخجل الذى وضعتنى فيه لمسـات المثال الخطيرة والبطيئة •

وعلى وجهى الحقيقى ، كنت أريد أيدى المثال « بك » لقـد رغبتها وناديتها •

عيوننا تتقابل ، تتعارف ، تتراوغ وتتجاذب كذلك • الصخب يسرى فى دمى • ليتنى قبلت أنامل هاتين اليدين واحتفظت بهما طويلا لتضغطا على شفتى •

كان « بك » يسيطر على لسانه وحركاته ، وكان يحتفظ بأفكاره • وكنت أنا كذلك • واستمرت هذه الحرارة أياما حتى كانت المفاجأة التى جعلت كلامنا يستدير بعيدا عن الأمر ، كما كانت هى التى قربت كلامنا الى الآخر فى نفس الوقت •

وهنا تذكر جيدا يابوباستوس أنى طلبت منك مرافقتى • وكان حضورك وجوك المرح يكسران الدائرة السحرية ويمنعان من أن يكون الموقف ثقيلا •

وماذا كان سيكون الحال أثناء قرون أخرى أو قارات أخرى ؟

كنت أحب أخناتون ، ولا أشك فى ذلك • ومع ذلك فقد كانت رؤية « بك » وذكراه تثيران عندى نوعا من الاعتمالات يقولون ان الرجال يعرفون كيف يعيشون أكثر من حب فى وقت واحد • أما نحن ؟ •• وربما تعرف النساء كذلك أيضا ذات يوم فيما بعد •

أما أنا فلم أشعر به فى الوقت الحاضر الا كنوع من التمزق والاضطراب والشكوك • وفى وقت ممكن أن اعتبره مختلفا عن وقتنا هذا ، وقد يكون فيه كل شىء ممكنا ، هل يمكن أن أعيش المشاعر مناصفة •

ما الذى يمكن أن يحدث ؟ أأعيش الآن تماما هذا العيشة وهذا الدوار ؟ ثم بعد ؟ ••• ليتنى أستطيع الاختيار • ان حرية الاختيار تبدو لى على الدوام كاملة ، حسب ظنى • وماذا نعرف فى الحقيقة عما قد نفعله فى ظل ظروف مغايرة ، وفى عوالم أخرى لا نشك فيها حتى مجرد الشك ، وخلال حياة أخرى مغايرة •

أحب أخناتون والشك لا يتطرق الى فى هذا الشأن ولو للحظة. ولا رد على اخلاصه الا باخلاص من جانبى • ورغم ذلك ، وخلال عدة أيام ، غمرنى « بك » وصارت صورته تعيش فى لحمى وتسرى فى عروقى •

وأثناء حزنى العميق ، لا أكف عن الحديث اليه • يجذبنى الى شاطىء المياه أو نحو رمال الصحراء • يقودنى خلال أوقات الغسق وفى الصباح • أتحدث اليه وأسمعه • وأتمنى حضوره فى كل لحظة من النهار •

حلم يخلصنى مما أنا فيه •

بينما كنا نتنزه ـ أنا واخناتون ـ سائرين فى الطرقات بين الحقول ، تركنى فجأة ليختفى فى احد حقـــول الذرة • وكانت تفصلنا احدى القنوات •

كان يبتعد عنى بخطى واسعة • وفى لحظات كانت سيقـان الذرة الطويلة قد أخفته عنى • وكانت هذه السيقان تتمايل أحيانا أخرى ليظهر فجأة فى أشعة الشمس بهيئته المؤلمة • وكنت أناديه لكنه كان يداوم المسير فى طريقه دون أن ينظر وراءه •

وصارت المسافة بيننا واسعة ويتعذر عبورها • ولم يستمع أخناتون الى نداء أبى على الاطلاق • ولم أكن أستطيع اللحاق به كذلك ـ كانت هناك قيود تعوق ركبتى • وكان الطين يمسك فى ساقى •

وحينما استيقظت من هذا الحلم ـ وكان ذلك ساعة القيلولة ـ خرجت من مضجعى قفزا لأبحث عنه •

وجدته جالسا فى جمع من مستشاريه ، كانوا يتبادلون الرأى بشأن اسكان حى النساجين بالمدينة • وحينما رآنى أخناتون ، لم

يلبث أن نهض وأجلسني جواره · ولهذا وفي الحال تبددت أحلامي لهذا الاستقبال الحسن وحنانه الزائد ·

وفي تلك الليلة ، وبينما كان يعبث بشعري ، خيل الى أن الشكوك تراوده حيال مشاعري نحوه خلال الأيام الماضية ·

وقد وردت الى خاطري فجـــأة ذكـرى آلامي ومعـاناتي أيام (تاديهيبا) وبالرغم من ذلك لم نتحدث بخصوصها ·

كانت ذراعاه صلبة وخفيفة · وكنت أشعر وأنا بين ذراعيه بالحرية والراحة ، لهذا كنت أتمنى ـ حينما كنت أتركه وحيدا مع نفسه ـ أن أفتديه من كل خطر يهدد حياته ·

وبعد ذلك بأيام ، كنت أبقى ساكنة أمام « بك » الذي كان ينحت تمثالا لوجهي ·

الجزء الثالث

ورغم أني سعيد فى مدينة سعيدة ، مر عليها حتى الآن اثنا عشر عاما ، الا أنى أستيقظ فى منتصف الليل وجسدى يتصبب عرقا من الهموم ٠

وقد تكون حادثة واحدة كافية أو مصيبة غير متوقعة ليختل توازن هذه المدينة وتنهار فى النهاية ٠ وحيث ان هناك دعامات صخرية تسد الأفق فى أماكن متعددة ، كنت فى نفسى أقول انه لو سقطت صخرة واحدة ، فان الشاطىء كله سوف ينهار ٠

وكلما كنت أطارد هذه الأفكار ، كانت سرعان ما تعود مرة ثانية ورغم أن المدينة كانت آمنة ، وكان الحال مستقرا ، وكان الشعب متماسكا ، فقد كان المستقبل فيها مبعثا للظنون والتخمينات ٠

كانت الأمور طيبة بالنسبة لى • وكنت كذلك على علاقة مع « نوبا » عاملة المجداف التى اعترفت لى بجرأة بالغة بأنها انقطعت عن زيارة المدير « توتو » منذ أن اكتشفت ان تفكيره أعوج مثــل اعوجاج خلقى • لهذا غفرت لها •

كنت سعيدا ومسرورا • وأعيد تكرار ذلك ثانية • لقد كنت فى قمة السعادة كأغلب سكان مدينتنا • ومع ذلك ، كنت أرى أننى فوق قمة أستطيع ان أسيطر منها على ما حولى من الطبيعة • ومع ذلك ، وبينما كانت عينى اليسرى تمتلىء بالسرور والثقة ، كانت اليمنى متشككة فيما سوف يحدث •

كانت تلك العين حريصة على الا تتركنى أعتقد لفترة طويلة أن الشعوب الهادئة لها تاريخ ، ان المدن التى تسودها الســعادة تظل خالدة على الدوام وأن الحب عمره طويل !

وهكذا خلق الناس ليندفعوا بطبيعتهم الى الهاوية ، تحدوهم فى ذلك طبيعتهم الخالصة • وهل ياترى تم العمل بهذه الطريقة وحسب هذه الطبيعة حتى ترتفع المدينة على فوهة البراكين ؟

هنا ، أقيمت الأحجار وارتفع البناء ، وسكن الناس فى هدوء وعاشــوا كذلك فى هــدوء • وأخيرا نستنشــق هواء الراحة والاسترخاء ! وكان بامكاننا أن نسن قوانين عادلة وكثيرة ، أن ندعم حرية الكلمة وان ننشر العلاقات الطيبة بين الانسان وأخيه فى داخل المدينة • تلك العلاقات التى كنــا نتطلع الى ان تسود رويدا رويدا فى كل أرجاء مصر وفى كل البلاد المجاورة •

ومع ذلك ، فاننى لا أعرف كيف أفسر استشعارى بالشــفاء ولماذا كنت استشعره • كنت أترصد هذا البلاء وأبعد فى الوقت نفسه مايدل عليه وينذر به •

ثم وقع ماكنت أخشاه .

وعقب الشفاء من المرض الذى كثيرا ما عانت منه ابنتنا الثانية « ميكيه » مالبثت أن ماتت الصغيرة فجأة . كانت رقيقة البنية ومع ذلك كانت صلبة العود مثل أبيها . كانت تشبهه فى كثير .

كانت « ميكيه » فى التاسعة من عمرها . وقد رأيت « أخناتون » فى الصالة الضيقة المستطيلة حيث لفظت أنفاسها . رأيته يحمل جسد ابنته عاريا فى يديه . وكانت الحرارة مازالت تسرى بفتور فى جسدها .

أراه كما لو كان ينظف هذا الوجه الصامت بأنفاسه . أراه ينفخ فى يديه ويفعل ذلك على هذا التمثال الهادىء . كان هكذا يفعل كما لو كان يريد ان يبقى بانفاسه الحارة تلك الحرارة الهاربة ، كان يفعل ذلك كما لو كان يريد أن يشيد مانعا أمام هذه البرودة التى تغزو جسدها عضوا تلو الآخر ثم تثبت فى النهاية .

وماتت الطفلة لكن الباكيات لم تظهرن من بعد . فقد أمسكن عن البكاء حتى يعرف اخناتون ذلك بنفسه ويتقبل هذا الفراق ، وحتى تأتى اللحظة التى يضع فيها طفلته الباردة المتصلبة فى مثواها الأخير والذى سبق اعداده وتغطيته بقماش أبيض .

وهنا ارتفع الصياح والنواح . وتلك متأوهات تهز الأذرع والرؤوس . وتنتحب البنات « ميريه » و « أنخيه » و « باكيه » . ومالت كل واحدة منهن نحو الأخرى . وقد حملت احدى الخادمات المولودة « نيغير » الى حجرة أخرى . تلك الصغيرة التى تقوم بارضاعها واحدة من الخادمات . وقد جلست المرضعة العجوز

ومعها « سيكي » على ركبتيها ، جلست تؤرجح الصغيرة الممتلئة الى الأمام والى الخلف لكي تبدد حزنها ٠

وتمر الصور في شريط أمام عيني الجامدة دون أن أدري عما اذا كنت متواجدة أم لا ٠ ونحن كذلك لانبدو الا وجوها في براويز وقد أذهلتها الفاجعة ٠

لقد كان حضور أخناتون ذا تأثير كبير بالنسبة لي ٠ وكان هذا التأثير يأتي الى على شكل موجات تغمرني ، ثم مالبث أن هدأ هذا التأثير ٠ وقد انحنينا على هذا الجسد الجامد المستسلم لكل النظرات ٠ نتأمل فيه دون أن نراه ومن غير أن نصدق ٠

وانتشر الصياح حولنا بمزق نسيج الهواء ٠ وكثر البكاءون ٠

وأخذت الضباع تعوى في داخل بطوننا ، كما أخذت الصقور تخيط أحشاءنا ٠ ولكننا ظللنا مغمورين في سكون جسدنا المنزعج ٠

وبعد ذلك بمدة طويلة ، مددت ذراعي نحو أخناتون وأحطت جسده وأحسست ببشرته تحت بشرتي ٠ وأحسست بحياته تدق في داخل راحة كفي ٠ حياته الميتة وحياته النابضة ٠

وأخيرا انهمرت الدموع من العيون ٠

وابتداء من تلك اللحظة ، بدأت صحة الملك في التدهور ٠ لقد هزه موت « ميكيه » وتمكن المحيطون به من ادراك ذلك بسهولة ٠

وهل يمكن ان أتحدث عن « مقدمة » ذلك ؟ لست ساذجا لهذه الدرجة ٠ لقد سخرت علانية من التنبؤات والطلاسم والتعويذات ومن الأيام التي أسموها أيام الشؤم والنحس وأيام الرخاء

والاستبشار . سخرت من مظاهر هذه الاعتقادات التى ينتج عنها الخوف أكثر مما يتجلى فيها من الحقائق .

ومع ذلك ، فقد يحدث أن يتعارض حدث ما مع مسيرة الأحداث أحيانا . يحدث أن ينحرف الطريق عن المسار . فحين يعترض حجر مسار العربة فى الطريق ، تتعثر وتنقلب . وهنا تبدأ المأساة وتتوالى فصولها . وتكون بقاياها فى الطين وتنهار الواجهة . كلمة مزعجة وحدث أكثر ازعاجا .

وتزيف الأمور ويختلط كل شيء الى أقصى الحدود .

وكنت على الدوام شهيدا على تتابع تلك الأحداث .

والتاريخ ــ ذلك التاريخ الذى استطاع والدى واستاذى أمينو أن يرسخ فى عقلى أصوله وباصرار ــ ملىء كذلك بتتابع هذه الأحداث . فالأوبئة والمصائب والأزمان تتوالى جميعها على اناس وشعوب بأكملها ، فتتعقبها لفترات طويلة .

وأى سبب يمكن أن نرجع اليه تلك الثروات السيئة الرديئة ؟ ان الانسان لساذج ومجبر فى نفس الوقت أن ينحنى أمام القدر ، مجبر ان يخضع تفكيره الى خشية المصير . ومع ذلك يبقى فاغر الفم مشدوها أمام ما يصيبنا من فيوضات المصائب دون تمييز .

وقد حدث أن قمت بالتجول فى المعبد مع الملك . وكذلك دعانى الى السير فى أرجائه مرة أخرى بعد رحيل « ميكيه » .

ومنذ أيام قليلة ، كنت أترك « سنب » فى رعاية « سيكى » التى كانت فى أيامها الأخيرة . وحسب ما أظن ان حركاته المضحكة جعلته ظريفا فى تلك الأيام .

وعند القداس ، وقع بصرى على مالم أره من قبل . لقد

انبطح أخناتون ساجدا على الأرض • وقد كنت آراه من قبـــل يقف عند الهيكل رافع الرأس دائما •

وقد تأثرت نفرتيتي التى كانت فى صحبتنا لكنها لم تفعل مثلما فعل على الرغم من ذلك • وقد كرر الفرعون ما فعله فى المعبد بعد ذلك بمفرده • فهل ياترى كان يلوم نفسه على أنه تغافل عن الهه حتى تلك اللحظة وانشغل بأمور المدينة ؟

وارتفعت كلماته وصلواته الى ســماء المعبد وهو يتوجه بكلماته الى عنان السماء • وقد كان لهذه الكلمـــات أثر عظيم • فقد جعلت هناك مسافة بين أخناتون وبين أغلب النـاس بالتدريج دون أن أدرى ، هؤلاء الناس الذى كان يسعى وبكل الحماس الى أن يرتبط بهم •

مصر التى مضى عليها العديد من السنين فى هدوء ، كانت لديها أسباب للقلق والقلاقل • مصر ، تلك القمة العريضة التى كانت تمتد منها أذرع كثيرة ، تلك التى كانت تخضع لها الأقاليم المفتوحة •

وكان سكان وادى النيل يتذكرون جيدا أن ملوكهم المغاوير قد أنقذوهم مرات كثيرة من الاخطاء وكذلك من استعباد الشعوب المجاورة المحبة للحروب •

لقد كان هؤلاء حكماء متشـــككين ، لهــذا لم يجهلوا على الاطلاقأن الخط الذى ســـار عليه الفراعنة ، انعم على هذا البلد بامبراطورية شاسعة من جراء روحهم القتالية • وحينذاك أصبح الغزو « عملا ساميا » وكان الهجوم « حدثا براقا » •

وكانت الحرب هى شغلهم الشاغل ، فكانوا يعرفون التحكم

والسيطرة ، كانوا يعرفون كيف يقبضون بيد من حديد بمقاليد السلطة .

وكيف يمكن أن تصير مقاليد السلطة فى يد « أخناتون » المتراخية المسرفة ؟ هذه السلطة التى كان نفسه يهاجمها ويفضحها ، ماذا يصير هو من جرائها ؟

لقد كان شعب مصر يتعرف على نفسه من خلال هذا الملك الذى جبل على الرفق وحسن المعاملة أكثر من العداء ، وعلى الرقة أكثر من العنف . الى أين كان بمقدور هذا الشعب ان يسير مع هذا الملك ؟ والى أى الحدود ؟ ألم يكن هذا الملك الذى ارتفع قدره وعلت مكانته يبتعد عن الشعب كذلك بدوره مثل غيره ممن سبقوه ؟

وانطلقت الألسنة بالكلام فى مدينة الأفق ولم يظهر أحد التقوى أو الأخلاص ولا الأحقاد أكثر من اخناتون . وكان والدى أمينو يقول : « دع الكلام الطيب يدخل كى يكون بيننا . أما الكلام الآخر ، فليبق فى الخارج والا أغرق هذا الكلام فى ظلمات جسدك . وعليك أن تظل يا ولدى « بوباستوس » صامتا . ان صمتك يجعلك تهزم الأعداء » .

وبينما كان أخناتون يعيش على الأمل فى أن تتوحد أقاليم مصر تحت ظل عبادة واحدة وحب واحد - وربما كان يأمل فى ان تتحد الدنيا كلها حول هذا المفهوم - كان أعداء مصر يتزايدون .

كان « عزيرو » العمورى يحاصر مدن الحدود واحدة وراء الأخرى وبذلك تحققت نبوءة الملكة « تى » حينما قالت لولدها أخناتون أن يحذره .

وتعاقبت الرسائل القادمة من الأقطار المجاورة تحمل توسلات والتماسات الى الملك . وكانت تفد الينا على ألواح من الخزف

أو الفخار · وكانت الكتابة على هذه الألواح مختلفة عن طريقتنا في الكتابة فقد كانت حروفها ذات زوايا حادة وبدون صور · لكن أغلب الكتاب كانوا يستطيعون فك رموزها · وقراءتها بعد ذلك ·

وكان أمـراء وحـكام مدن الحدود يرتعدون من تهديدات « عزيرو » العموري الذى كان يتحالف مع المتذمرين ويعمـل على تقوية قواته · « ان مدينتك « تويب » لتبكي ! أسرع لمساعدتنا ولا نحب أن نعاني ماعانته « تي » أو « قادش » · لسوف يغزونا « عزيرو » لو تأخرت جنودك وعجلاتك فى المجىء من أجل نجدتنا · سوف يفعل ذلك مثلما قام بغزو أخواتنا المدن الاخريات ! » ·

وكان حلفاؤنا الملوك يهاجموننـا بصياحهم وشـكاويهم · كانوا يقولون : كانت الأراضي المصرية مليئة بالمغيرين الذين كانوا يروعون الرسل ويسلبونهم · وكان هؤلاء الرسل يرفضون المرور بهذه المناطق الخطرة للوصول الى الفرعون ·

وكان أمراء الدول المجاورة ـ والتى كان التاج يضـمها الى سلطانه ـ يردون بالاتهامات ويجرمون من قاموا بذلك · ووصل الأمر بأحدهم الى ان تمادى فى العداء حتى انه اعتقل سـفير « مدينة الأفق » وألقى به في السجن . وكان الملك قد أرسله لينصح هذا الأمير ليتحلى بالاعتدال والتسامح ·

أغرق هذا العمل العدائي آخناتون فى الحرج ، فناقش الأمر مع « بخورو » أحد قواده المخلصين · فأوصى هذا الأخير ومعـه الجندى القديم « ريبـادى » بضرورة ارسال جيش الى الحدود بسرعة خشـية أن تتفتت الامبراطورية مالم يستتب النظـام من جديد ·

ورأيت الملك ينحنى أمام هذا الرأى ·

والآن أدرك « بخوزو » و « ريبادى » معه ، أنه لابد من العودة الى استخدام السلاح بعد ان كانا من قبل يؤيدان أفكاره الداعية الى الهدوء وعدم استعمال العنف ٠

فهل ياترى سوف يوافق أخناتون الآن على ذلك ؟ وهل سيرد بالقوة على القوة ؟ وما قيمة « مدينة الأرض » فى هذا الوقت بالنسبة لمكانتها الروحية ؟ والى أى مدى ستكون قد غيرت وجه الامبراطورية التى كونتها الحروب ؟ وهل كان على أخناتون أن يتقبل الخيانة وان يدين الأقل ؟

ـ وهل من الأفضل أن يتراجع عن الامبراطورية حتى لا يضحى بحياة الناس !

واستطرد الرجلان : لو تأخرنا فى اتخـــاذ القرار سيكون الأمر أكثر خطورة ٠

ـ سيضيع كل شىء ٠

ـ ولا يمكن للحب وحده ان يدير طويلا شئون البـلاد ٠

وكانا يؤكدان مرارا :

ـ انه لابد من التقاتل ٠ ان الحلم لا يستطيع أن يفعل شيئا أمام القوة والعنف ٠ واذا أردنا أن نغير كل شىء ، فلابد من التأهب للدفاع عن هذا التغيير الى آخر المدى ٠

ـ العدو يقظ ٠ وأى عدو يفيىء الى ما لديه وما فى حوزته من تلقاء نفسه دون أن يستمر فى عدوانه ؟

ـ وهل سيدخل أخنـــاتون فى الدائرة ؟ تلك الدائرة التى يدعو الثأر فيها الى مزيد من الثأر ، والأحقاد فيها تثير المزيد من الأحقـــاد ٠

وعاودته نظرات مخيفة الى الذاكرة : تضحيـــات جسيمة ، ابـادات واهلاكات بالحمـلة ٠٠ كان يطأطىء الرأس أمام هذه التصورات ٠

ـ أيها الأصدقاء ، لقد كنا نأمل ٠٠

ـ والأحداث تدفعنا ٠

كان الملك يتخبط فى تقليب الأمور ، وربما كانت حيرته تزداد ٠ وقد يبحث عن بدائل مغايرة :

الحياة ٠٠ أى شىء أعز من الحياة ؟ وبأى الحقوق يمكن للمرء أن يصادر استمرار الحياة ؟ ٠٠

ولن يتراجع أخناتون عن مبادئه ٠ وهنا ينسحب الرجلان ٠

رأيت الملك « أخناتون » وزوجته « نفرتيتى » ساعة الغسق ٠ رأيتهما يسيران غدوا ورواحا بطول النهر وكان يتكىء عليها من وقت لآخر ٠

كنت أسير وراءه مثـــل ظله ٠ كنت ظله القليل الانشراح والبهجة من ذلك الظل الذى كان يتعقبه من قبل فى شوارع طيبة القديمة أثناء الليل ٠ كنت ظـــلا ملتصقا بالأرض ، مضغوطا ٠ كنت ظلا سمينا قصيرا وحزينا ٠ أشبه فى قليل صورة أخناتون .

وكذلك لم تتركه الملكة قط ٠ كانت تتحدث معه ، تضـــع يدها فى يده ٠ وكنت على يقين أنها تشجعه على الاستبسال ٠ ثم يتركها أخناتون كى يسير بمفرده بعيدا فى جنيات المعبد ٠

لقد شحب وجهه ، واحتدت نحافته ٠ وأخشى أن تخـونه قواه وتهجره وأن تكلفنى الملكة بالسهر على راحته ٠

أما بالنسبة لى ، فأنا ـ في الحقيقة ـ مغمور فى تيه وحيرة • عواصف رملية تضرب جنباتي وتغرق خدى • وأسئلة واستفسارات تهاجمني متدافعة فتضايقنى وتزعجنى • والتاريخ يجرفنى فى تيار مجراه •

ما هي الحقيقة ؟ كيف نقدم العون للرجال ؟ وهل ينبغى الانحناء أمام حقائق الحدث والحقيقة تعصف بالجميع ؟ كل هذا يعتمل في ذاكرتى من أجل هذه المفاهيم الجديدة الخطيرة حتى أن كل حدودى وأعصابى ستنفجر •

لا ان جسدى ينقرض ويقلل من كتابتى بسبب سطوة المرض وتوالى المصائب • ومع ذلك فقوتى طبيعية • ساقاى القصيرتان المقوستان والمحشوتان بالعضلات ترسخ فى الأرض بقوة •

بينما أخناتون ••

أخشى ـ كما تخشى الملكة ـ أن تعاوده نوبات التشنج من جديد • فكنت أسير وراءه فى كل مكان قلقا عليه وأتبعه حتى يدخل المعبد • ورغم بطنى الكبير وفخذى المتلئتين ، فان شهرتى قد ذاعت بالمقدرة على الانكماش والتقلص لدرجة أن العين لاتقدر على رؤيتى •

وكان يكفى « سنب » ان انظر اليه نظرة أو أن أمسح على جسمه حتى تدرك أنى سأنتقل لفترة بدونه • وكان ساعتها لا يتطلع الى صحبتى دون أدنى رغبة أو هوى فى ذلك • ورغم هذا كان مزاجه يهفو الى ذلك وكانت عيناه الصفراوان تنغمران فى سائل أقل لمعانا ، وكان ومض حدقة عينه يصير باهتا •

كان أخناتون يرفع ذراعيه عند الهيكل الى السماء فى اتجاه

رايات الاله المخيف « بعل » والى الاله الدموى « تسيب » والى المرعب «اشتار» • ولكن ما هى قدرة يدى الاله الشمس المفتوحتين؟ ولكنى أستريح من عناء القلق أقول ماذا تفيد هاتان اليدان وعلى الأقل فى هذا الوقت بالذات ؟

أرى يدى أخناتون تتجه نحو الضياء ، أرى أصابعه تنفرج وراحة كفه تتسع ، فهل يا ترى تبحث نظراته عن شىء هناك بعيدا فى الداخل ؟ لا أدرى ! لابد أنه يحاول أن يتصور مكانا امتنعت فيه الأحقاد عن الظهور ، مكانا تبددت فيه أهوال الحرب ، وزالت منه أدران العنف ، مكانا لايحلم فيه الناس الا بالاجتماع على كلمة سواء فيها خير الجماعة وصالحها •

هنا فى الهيكل ، يقضى الفرعون وقته • وتكسوه الوحدة • هنا تخف عنه حدة المعاناة • أما أنا فعلى النقيض فى حاجة الى وجود الآخرين بجوارى •

وأنام هادئا فى اتجاه جدار قصير من الحجر ، أنام ورأسى مدلاة على صدرى • ثم لا ألبث أن أصحو فجأة من غفوتى • وأخناتون مازال هناك وعلى الدوام فى نفس المكان ، ساكنا فى جلسته التى لاتتغير فيتجلى مستغرقا فى العبادة • ولهذا أخشى أن يجد الملاذ هنا فى هذا المكان • فيصبح مقره المفضل على الدوام •

ولدت « سيتنب » آخر بناتنا بعد وفاة « ميكيه » بعام واحد ولم تتطلع الى هذا الانجاب فى الحقيقة حيث كانت تسيطر عليها حتمية تكريس كل القوى لمواجهة هذا التمرد وهذه الخصومة وكانت البراهين تتوالى علينا من جميع النواحى لتدلنا على ما حدث •

لقد ثار جسمى كله على هذه الوليدة التى كانت تكبر فى

أحشائى • لأنها كانت تسلبنى جزءا من كيانى الذى كنت أريد أن أكرسه كله لأخناتون • أخناتون الذى كان يعيش فى قلق وضيق غامرين من جراء الأخطار التى كانت تتهدده •

لم أكن راغبة فيها بل كنت راغبة عنها • وكنت أتصور ان الزمان الذى فى امكاننا ان نتخيره لانجاب الأطفال مازال بعيدا • ولكننى مع ذلك كنت أرغب فى ان أظل متماسكة متقبلة لقدومها •

وحين وضعتها ، تقبلها قلبى على الفور ، وتعلقت بها كما تعلقت بالأخريات وبنفس الاحساس • والآن وقد تفرقت بناتى وابتعدن عنى ، ففى اعتقادى أن « سيتب » الصغيرة سوف تكون وستظل أكثرهن وعيا بقدرى وقدر المدينة •

ولا يستطيع أحد أن يفرج عن أخناتون همومه • فهو لا يعنى بأى شىء مما يدور حوله • لا معنى لأية ابتسامة أو حركة • لا معنى للعب بناته أمامه ولا الصغير « سمنخرع ». وحتى صرخات الصغيرة « سيتب » ، وكلمات الطفل « نيفير » - كل هذا لايمسه ولا يحول تفكيره •

وهو لا يشكو ما به من هموم ، لكنه غارق فى شجن صامت لا أقدر على اخراجه منه • ويطلب منى ان أتركه لنفسه ثم يتجه فى خطى بطيئة الى معبده •

فأقول : يا بوباستوس ، اصطحبه دون أن يراك كى تبدد مخاوفى •

كان الانفراج الوحيد الذى ارتبط بنا فى بداية هذه الفترة المظلمة ، هو رؤية وفاة مربيتى « سيكى » فقد كان موتها ورؤيتها تموت بمثابة هبة مفاجئة من جانبها •

لم نكن قد رأينا من قبل وفاة مثل وفاتها ! كانت « سيكى » تغنى وهى جالسة تستقبل الموت . وكانت تقول مبتسمة : « قد أستطيع الدفاع عن نفسى ضد تماسيح العالم الآخر وأشباحه.» . وقالت كذلك : سوف أقرأ قائمة طويلة من الأعمال السيئة التى لم أقم بارتكابها ! أما تلك التى أستشعر الذنب بارتكابها فلن أضرب أذن الآلهة بسببها . وهذا ما أضعه فى الاعتبار الأول . وأضافت تقول : انهـا سـوف تعود كثيرا لتعيش بيننا كى تأكل وتشرب وتستنشق نسيم الحياة .

وعادت تستأنف الغناء لتتركنا فى النهاية متألقة كما لو كانت تتأهب للخروج فى وضح النهار .

قرأت بعض الخطابات الواردة الينا من بعض الأقاليم . وعلمت بالغزو الذى قام به « عزيرو » . وكنت على علم بتوصيات « ريبادى» و « تجورو » .

ومثلما اعتقد أخناتون ، أحسب أن العودة الى الحرب عودة الى الماضى الذى نحب ان نردعه ونهزمه . وعلى الذين يعترضون على هذا الرأى أن يعلنوا آراءهم . فليأتوا لى مدينة الأفق . أن للجميع مكانا هنا فى المدينة .

ان أغلب الناس يتطلعون الى هـذا العصر الجـديد . ونحن مقتنعون بذلك تماما وان التخلى عن العنف سوف يكون خيانة لهؤلاء الناس .

كنا نتناقش لساعات طويلة . وكان أخناتون يرفع يديه الى جبينه فجأة كما لو كان يخشى ان يذهب عقله : فأقول له سوف تخلد هذه المدينة .

انه يتعلق بذراعى . وانى أرتعد وترتعد فرائصى لمجرد أن يمر

بخاطرى أن أحيا وحيدة بدونه • ان ناره وحرارته توقظنى • ويقينى هو يقينه • استند على صدره وأقول : ان دمك يعيش • لا تقلق ولا تنزعج ••• ويهز رأسه قائلا : ليته كان على ان ابتعد •

فأقول : من يستطيع ان يجبرك على الابتعاد ؟

ـ ومهما أعمل ينبغي أن تبقى أنت يا نفرتيتى •

ـ لسوف أبقى •

ـ أجيبه دون ان أفهم معنى كلامى أو كلامه •

ـ سوف أبقى •

وبعد هذا بدا عليه الهدوء •

النجدة • النجدة • يا كل قوى الأرض والشمس • النجدة يا أعماق النساء ، يا كل ما فيهن من حرارة وشجاعة • أتوجه اليك يا كل طاقات الأرض بالنداء ، يا أيتها الرغبات والأهواء ، ياأيتها الأصول والمبادىء • أتوسل الى كل الروابط والعلاقات الغامضة ذات الهواء الباعث للحياة والماء الذى يرعى هذه الحياة • أتضرع الى روابط دقيقة غير مدركة ولا محسوسة تربطنا بأولئك الذين عاشوا فى الماضى سيأتون ويحيون على مثل ما لدينا من الأمل • أناشد وأتوسل الى كل ما يعين على الحياة فى هذه الدنيا •••

ـ وهل ستكون هنا مهما أقوم به من الأعمال ؟ •

ـ سأكون هناك •

وذات صباح أعلن المدير « توتو » الى الأمراء الملوك أن رسولا من قبل « حور محب » يطلب مقابلتهم •

ومنذ أن رحل « حور محب » عن المدينة وهو غير مستريح . لم يكن يرسل المكاتيب الا نادرا . وحين ترقى الى رتبة الجنرال ، ظل يحكم بيد من حديد أحد أقطار الشرق . كان يفتش ويتأكد باستمرار من سلامة دفاعاته التى تحمى بلادنا الشاسعة .

وقد أبحر هذا الرسول مع ثـلاثة من السجناء الذين اتهموا بالتآمر على الدولة. وكان قد سلم هؤلاء الى يد الفرعون ليتخذ فيهم أمرا !

كان يوما من أيام الشتاء . وكان الخدام قد أشعلوا اللهب فوق القارب . تلك النار التى كانت تستعر فى المكان الواسع .

ـ وكان هناك طابور من الرجال فى حالة عرى شبه كامل يرتجفون من البرد القارس . كانوا يسيرون الواحد مربوط بالآخر وأياديهم الموثوقة بالحبال مشدودة الى الظهر .

وعرفت رجل الشرطة « ما هو » وهو يمسك بعصا يضربهم بها ويتوعدهم . وكان « ما هو » قد ازدادت قسوته عندما ضاعت منه الأوزة . وصار وجهه الحليم السمح وجه ظالم صغير يغمره الهناء بما يفعل . وقد أثار هذا التحول فى مظهر وجهه اضطرابا وقلقا شديدين . وسوف أعبر عن مشاعرى هذه لـ « ماهو » وذلك مهما كان الثمن .

أمر أخناتون بفك أسر السجناء فى الحين . وعلى الفور توجه رسول « حور محب » والمدير « توتو » وآخرون كذلك ، توجهوا الى الكاهن الكبير « ميرينيه » يطلبون منه المساندة حيال تصرف الملك الذى لم يرق لهم ، لكن الكاهن ظل صامتا .

وقـد طلب الفرعون من الوزير « رعمس » ـ الذى كان من مهامه أن يقيم العدل ـ طلب منه أن يتحقق من صدق هذه الأحداث .

وأن يسأل هؤلاء الرجال عما بدر من تصرفاتهم ، وطلب منه كذلك ان يتحرى أسباب هـذه التصرفات قبل ان ينتهى الى ادانتهم أو تبرئتهم ٠

وهنا صاح الناس ووقع ما يدل على نفاد صبرهم ٠ وقالوا :

ـ انه تذمر من البعض ! وجه اليهم تهمة التذمر !

ـ انهم فى كل مكان يقومون باعدام مثل هؤلاء !

وهنا يواجه أخناتون الناس بقوله :

لو كان الظلم فى كل مكان ، فان العدل هنا فى هذه المدينة ٠ مدينة الأفق ٠ وكانت هذه آخر الكلمات التى قالها أمام الناس ٠ وكنت شاهدا على هذا وأقوم الآن بتسجيله ٠

كما أضيف ان صوته كان جادا وأن تمثاله المرتفع العالى كان يحكمنا جميعا ويأسرنا أيضا ٠ كما انى ما زلت أذكر نظرته التى ألقاها على الرجال ٠ كانت نظرة تطلب من الاخوة العون ٠

وربما كان يعتقد ـ هو كذلك ـ أنه كان متذمرا ٠ متذمرا لأن مولده وصفته كحاكم فى منأى عن الضرر ٠

وحتى هذا اليوم على الأقل ٠٠٠

وحتى المقربون بدأوا رويدا رويدا يعيبون مدينة الأفق فها هى « ميريه » أكبر بناتنا سنا تتهمنا بتشييد عالم وهمى ، عالم للضعفاء والعميان ٠ وكانت تعيب علينا أننا لم نحتفظ لأنفسنا بمكانتها ٠ وذكرتنا بالملكة « تى » ما زالت زيارتها محفورة فى ذاكرتها منذ كانت طفلة ٠ تقول ان هذه الزيارة كانت تجعل منها انسانة عالية الرأس مرفوعة الهامة ٠

وكانت تتحدث بلهجة متكبرة متعاظمة • وأذكر انها حينما كانت صغيرة ، كانت تلقى بأوامر صارمة حتى مع العجوز « سيكى » • وكان اخناتون ينزعج بنفسه من تصرفاتها •

وكان « سمنخرع » الذى يكبرها بعامين خاضعا لسحرها • وكانت تحدثه عن طيبة باستمرار فتفرض عليه تذكرها لتظل عالقة بذهنه • وكانت تطلب منه ان يرسم لها العاصمة العظيمة •

وكانت « ميريه » تثنى على « سمنخرع » لبقائه بجانبها فى « مدينة الأفق » لكنها كانت تقول له أنها ببقاءها فى المدينة يجعلها تغار من « نبخرع » الذى غادرها الى طيبة منذ أكثر من أربعة أعوام مع الملكة « تى » والمعلم « آيبه » •

فقد كانت العاصمة المصرية الحقيقة هناك فى طيبة حسب رأى « ميريه » • ولم تكن مدينة الأفق يوما أمام ناظريها مشروعا متكاملا وصل فى كماله الى ما وصلت اليه مدينة طيبة من الكمال ! طيبة الثابتة التى لا تهتز والتى تدعمها شهرتها المجيدة ذات الجذور العميقة الممتدة الى أعماق التاريخ !

ولم أكن أقيم وزنا لكلام « ميريه » اذ لم أكن أجد فيها الا نزوات مراهقة • وكنت أعرف من جانب آخر ارتباط « سمنخرع » بأخناتون وحبه له •

فمنذ وصـوله ، قام باعتناق أفكاره وآماله بنفس حماس الشباب واندفاعه حيال كل ما هو جديد •

واستمر الرسل فى التوافد الى مدينة الأفق • وكانت العيون سقيمة منهكة ، تملؤها نظرات الغزوات المفزعة والانهزام ولم تتحمل شواطئنا البراقة البيضـاء التى كانت تأتى القـوارب الطـويلة لترسو بها • تلك الشواطىء التى تحيط بها منازلنا ذات الألوان

الزاهية والتى تعلوها مخازن الغلال • وكانت رؤية شعبها المسالم الهادىء يتجول فى الشوارع الظليلة تثير هؤلاء القادمين • كانت صيحات الألم والرنين المخيف فى آذانهم تجعلهم لما يســمعونه من الأغانى التى كانت ترتفع الى السماء فى معابدنا وحدائقنا •

وفور الوصول وبعد الراحة من عناء الطريق ، لا يلبث هؤلاء الرسل ان يطلبوا الدخول الى الفرعون ليقصوا عليه سير الأحداث وما آلت اليه الأحوال •

وها هم يحكون له كيف أن الغزاة يزدادون ضراوة ، وأنهم لا يتركون اقليمــا الا ويستولون عليه • وان الأعــداء يتغلغلون باضطراد فى البلاد • وان الهجمات تزداد من جهة الشرق والغرب ، وأنه لم يبق هادئا من البلاد الا أقصى الجنوب منها •

وكانت الأيام تمر دون أن يتمكن هؤلاء الرجال من اللقاء به • وكان الموظفون المتحمسون لهذه الأخبار يلمحون الى الأمراء والحكام ويعقدون الأمور ويختلقون الصعاب أمام لقاء هؤلاء الرسل بالفرعون•

وكان هؤلاء الرســل يستعينون بالصبر لبعض الوقت ثم يتركون رسائلهم بعد ذلك فى أيدى أولئك الذين كانوا يصدقون العزم على توصيلها الى الملك • ثم يرحلون وقد تملكهم الغيظ •

وكانت الفوضى والضوضاء قد سرت • وانتشرت الشائعات فى المملكة بأن السلطة قد أفلتت من يد الملك وأنه لا أحد يحكم البلاد • كما أعلن البعض ان سيد مصر القادم تابع هناك فى الخفاء ينتظر اللحظة الملائمة ليستولى على الحكم •

وقد ربــط كبــار السن بين هــذه الفترة وسنوات حــكم « حتشبسوت » الأخيرة • وكانوا يؤكدون ان معاهدات الســلام العديدة وكذلك فترة الهدنة الطويلة التى فرضتها « حتشبسوت »

هي التى عملت على تفكك الامبراطورية • وها هو «تحتمس الثالث» الذى استولى على الحكم بعدها والذى كانت قد أبعدته طوال حكمها — ها هو يدخل التاريخ من أبواب العظماء ويصير أشهر الغزاة الذين عرفتهم الأرض • وبفضل حملاته الشجاعة ، أقام النظام وقضى على المؤامرات وعمل على أن يحترم الجميع النظام الملكى وأعاد الى مصر أراضيها الواسعة •

ولما لم يستطع القائد « بخورو » أن يقنع الملك بالدخول فى حرب مع المتمردين ، هرع هذا القائد الى اقليمه الذى تتهدده الأخطار من أجل الدفاع عنه • وعلمنا بعد ذلك بوقت قصير أنه قتل •

وكذلك فعل « ريبادى » مثلما فعل « بخورو » فقد قاد فصيلته واتجه الى مقاطعته — وأخذ يحارب حتى وصل الى احدى نقط الحدود ولكنه لم يتحمل سقوط المدينة ومات •

وكانت هذه الأخبار ترد الى مسامع « اخناتون » فكان يشعر بالأسى ويتهم نفسه بأنه وراء افتقاد أصحابه •

وكثرت الصيحات والصرخات • وتوالت حوادث الاستسلام • وتفشت حوادث الانسحاب • وكان البعض يرسل الرسائل الى « عزيرو » يطلب منه النجدة والتحالف معه • وصار « عزيرو » يوالى انتصاراته يوما بعد يوم • وكان آخرون يرسلون الى الملكة «تى » يعلنون الخضوع لأوامرها كسيدة أولى لطيبة • كما أرسلوا الى المعلم « آيبه » ذلك الذى صار له نفوذ وسطوة على الملكة • فكان له التأثير على الشئون العامة •

وأقسمت لى عاملة المجداف « نوبا » ذات القلب الكبير الذى لا يقوى أمام العناد — أقسمت أنها سوف تقف بجانب الأمراء الشبان لما يتهددهم من المخاطر وذلك رغم مكانتها الغامضة • وكانت

تتعهد « سنب » وترعاه اذ لم يعد هذا يلقى منى الرعاية الكافية • فأخذت تنظفه وتغذيه دون أن تطلب منى شيئا مقابل ذلك عند عودتى •

وقد سادت الفوضى وعمت عند مشارف الحدود • لمن يظل الناس أوفياء ؟ للفرعون المنهزم ؟ أم للغزاة الجدد ؟ وكيف تتسنى للناس أن تدافع عن أنفسها دون أن تمتلك العدة والقوة ؟ وأين سيادة القانون ؟ وأين الخيانة ؟

وتزوج كثير من الزعمــاء المتذمرين كثيرا من المصريات • وكانوا أحيانا ما ينقسمون على أنفسهم عند التنافس على الزوجات • وأحيانا أخرى كانت هذه النسوة تستحث أزواجهن على استغلال ضعف السلطات والانقضاض على الملكية •

وقد أفضى الى أحد الناس بالقصـــة المفجعــة التى حدثت ل « نسيا » • فقد أوعزت هـــذه الى زوجها أن يثور على الفرعون والامبراطورية • وقام أخوها الشقيق على رأس فصيلة من الجنود بالتذمر على أوامر اخناتون الداعية الى الهدوء والسكينة وحاصر المدينة •

وتسلقت « نسيا » الأسوار تستحث الشعب على القتــال وتناشد المهاجمين التراجع • وقد غطت صـــيحاتها ونداءاتها على ضجيج المعركة حتى اللحظة التى فيها تلقت الملكة الشابة سهما قاتلا فى صدرها • وقد رماها به أخوها قائد الجنود •

وعلى الفور يرتمي جسدها الجميل على الجدار وينزف ما فيه من الدماء بينما صارت المدينة مثل ملك أعزل من السلاح والعتاد•

وكانت الملكة « تى » تهنىء نفسها على اصطحابها « نبخرع » الى طيبة • وكنت فى العاصمة القديمة أتلقى المساعدة على الدوام •

وكان مبلغ علمى أنها كانت ترى فى هذا الأمير الشاب الوريث القادم للفراعنة رغم انه يصغر أخاة « سمنخرع » .

وكانت الملكة « تى » قد أقلعت عن اسداء النصائح الى اخناتون منذ وقت طويل ، وعن ارسال المكاتيب اليه فى المدينة .

وكان يشحب وجهها وفي الوقت نفسه تزداد صلابة وكانت تتحرك في مشية تملؤهـا الحيوية رافضة الاستسلام لوهن الشيخوخة .

وكانت تتقبل اطراءات الكهنة ومديحهم حسب نصائح المعلم « آيبه » مما جعل هؤلاء يستشعرون بالسلطان والعظمة مع مرور الأيام .

كم كنت أود أن أسمع كلامك الحكيم يا والدى « أمينو » ! خصوصا وأنت فى هذه الأوقات العصيبة المليئة بالاضطرابات .

كنت تخبو منطفئا ببطىء هناك بنفس الصفاء ، ونفس الاعتدال : وفى وسط زروعك وفى منزلك الريفى . ومع ذلك يرتفع صوتك عاليا فى أعماقى . أسمعك تقول :

« انه قادم قبل زمانه ، هذا الأبلة الحكيم اخناتون . ذلك الذى تحبه يا ولدى . ان عقله زاخر بالفكر . وقلبه الذى لا يعرف المكر والحقد ضعيف أمام فساد هذا العالم . سر فى طريقك يا بوباستوس ، سر كما أنت ، طالما رأيت فى ذلك الفلاح ... » .

كم من الأسئلة كنت سأوجهها اليك أيها الوالد ؟ وماذا يعنى القاء السلام والاستسلام أمام الحقد والكراهية ؟ وهل تتمثل القوة فى الفن والفلسفة والحب ؟ أم ان الفلسفة مجرد هروب وملاذ ؟ ومن يا ترى على صواب ؟ الشاعر أم المحارب ؟ الوديع أم المهاجم الغازى ؟

وهل الحسام مبعث للشجاعة ؟ أم أن الشجاعة تنبع من عدم اللجوء اليه ؟ وهل من الواجب التغنى بالضحايا أم أن تخليد المنتصرين هو الصواب والواجب ؟ ألا تحب ان تكون اللغة واحدة فى جميع الأرجاء • مصرى كان الواحد أم بابلى أم نوبى ؟ أى شىء أعرفه كذلك ! •

ألديك الاجابة على هذه الأسئلة يا أمينو ؟

وهل يوجد فى الأصل اجابات هناك على هذه الأسئلة ؟

أحيانا أحسب أنى واقف ثابت • وأحيانا أخرى لا أرى الا هذه الأرض الممزقة • وهذه الأرض التى أسير فى أرجائها فأراها أطلالا ورمادا ، أسير فيها فى صحبة نفرتيتى ورأسى تطير كالبرق •

لقد عبر « أمينو » من الحياة الى الموت متوجها الى النيل وفى وادى هذا النيل الذى لا مثيل له •

ومنزله المبنى من الطين الصلب والذى يرتفع على مدخل يغطيه البوص وأوراق أشجار الموز التى تخفف قيظ الحرارة فى الصيف •

وانى على يقين أن « أمينو » جالس هناك ، ونظره متجه الى ذلك السهل الأفقى الأخضر ، الى هـذا النهر الذى ينساب نحو نهايته الهادئة •

وما زلت أبعد عن ذاكرتى طيف أيام اخناتون الأخيرة ومع ذلك ، يحدث أن أناديها كى تجىء يا بوباستوس • لقد كان هناك فى تلك الأيام على الأقل • وكنت أستطيع الحديث ومعه الاحساس بوجوده •

ولم يتمكن أى تخيل أو أى حلم أن يعوض رؤية جبينه أو

ملامسة حبيبته و خصلة من شعره و عينيه أو حتى بشرته ...
هـذا التواجد الكامل لهيئته • وليست هناك فـكرة أكثر حياة وحيوية وتأثيرا من دفء البطن : حرارة الأنفاس ودفء الكلمات ولهيبها على شفاة حية •

فمنذ مدة لم نعد نلتقى راقدين ، ولكنى أرقب تحركاته طوال الليل ، يتخلله عالمنا الممزق ، يقصه ويقطعه •

وأحيانا يستيقظ أخناتون والعرق يغطيه ، ثم تأتى نسـمة هواء تستولى على جسده ، فيرتعش ، فتسير عليه موجات دقيقة من العرق فى اتجاه هذا الهواء •

ويطلب منى أن أدفئه فاتحا فمه ، فأستحث أنفاسى الدافئة فوق صدره وكتفيه وساقيه •

وأقوم بتدليك جسده عضوا عضوا •

وفى ضوء شعلة مضيئة ، أرى ثنايا شفتيه تتحرك ، ويرسم ابتسامة ، فأقبل راحتيه ويقبل هو راحتى •

وتوحى كل حركة منه بنوع من الضياء • ونستعيد الثقـة ونتراجع الكلمات • ونصعد سويا وحتى طلوع الفجر • أقول له : سوف تخلدانى ويجيب قائلا : لا تهجرى مدينتنا •

كان اخناتون يسير فى الحجرة ليقتل الساعات تحت أقدامه فى الذهاب والعودة • وكنت أحاول السير بجواره فى تلك الليالى وحينما كنت أقترب منه كان يلتفت الى فجأة بطريقة توحى بأنه لا يريد معرفتى • ويمسك الشعلة المثبتته أسفل الجدار ليطفىء لهيبها •

وهكذا كان يسد كل الطرق كيلا أتجـــه اليه أو نحوه ٠ فكنت أعود مرة ثانيـــة لأجلس على الأرض وأتركه فى ظلمـــاته وسكونه ٠ وكان ضوء القمر خافتا حين يمر بردائه الأسود ، فكنا نبدو وسط الضوء الخافت ٠

وكانت وجنات أخناتون تزداد بروزا ويبدو خده أكثر غورا وعمقا ٠ ثم يصير رأسه ثقيلا ويميل الى الأمام ٠

وكنت في تلك الليلة أحس بالعجز أمام ما كنت أود أن أقدمه اليه من المساعدة ٠ كنت عاجزة عن مواساته والتفريج عنه ٠ فلم أكن ذات قيمة بالنسبة له ٠

وقد قام بعض كبار القوم باعلان خبر وفاة الملكة « تى » بصراحة قاسية وبلا تحفظ أو مقدمات ٠ مما هز « اخناتون » من الأعماق لدرجة أنه ما كان يستطيع التخلص من تأثير هذا الخبر المفزع ٠ لذا أخذ يلوم نفسه لأنه رأى فى نفسه السبب فى التعجيل بنهايتها ٠ وأخذ يتلمس لنفسه الصبر والسلوان لعدم استطاعته السير فى حركته الاصلاحية الى آخر المدى ٠

وقد وعدته بأن المدينة سوف تخلد مهما عملت من جانبى ٠

كنت أعرض عليه أن يعين « سمنخرع » مساعدا له ٠ وكان هذا قـــد اقترن بالأميرة « ميريه » ٠ ولأنى كنت أثـــق فى آرائه وأفكاره ، فقد كنت مقتنعة تماما بأنه سوف يقنع زوجته ويؤثر على تفكيرها لتدرك الخطر القائم مما يجعلها تساعدنا فى النهاية وتدعم جهودنا التى نبذلها لدرء هذا الخطر ٠

وتتدهور صـــحة اخناتون ٠ وتنتشر الخبر عاملة المجداف ٠ وتتعرض المدينة لكل أنواع العنف ٠ وها هى رهن لزحمة الأعداء الجبابرة ٠

وفي اعتقادى أن وجود الزوجين الصغيرين « سمنخرع وميريه » لن يشجع على اقتحام المدينة بل سينشر الاطمئنان والثقة بين ربوعها · ويتراءى لى الآن أنه قد حان الوقت لتنصيب « سمنخرع » وليا على عرش مصر ، ذلك المخلص لأفكار اخناتون والمخلص الحميم له ·

توفيت الملكة « تى » بينما كانت ترفل فى حيوية عارمة مثلما كانت تبدو فى حياتها · وقد حكى لى الكاتب الشاب « سيتو » الذى كان مكلفا بمتابعة أخبار اخناتون ، حكى أن الملكة « تى » كانت تجوب حجرات منزلهاالفسيحة بخطى واسعة نابضة بالحياة ، وانها أمرت رجال البلاط ونساءه بأن يغادروا سكنهم فى الليلة التى سبقت موتها · ولم يرق لها الا الابقاء على « آييه » ليكون قريبا منها · وهو وبعض الخدم والكاتب « سيتو » والفتى « نبخرع » ـ طبعا ـ ذلك الذى كان في الخامسة عشرة من عمره ·

كانت تسير نشيطة فى الصالات الخالية وهى تصطحب الأمير الشاب وراءها مؤكدة عليه بالنصائح والمواعظ ·

أخبرته بأنه سوف يحكم كل مصر فى القريب ، لأن أخاه الأكبر « سمنخرع » لن يستمر فى ذلك طويلا حسب كلماتها له · وبعد فترة من الزمان وعلى ضوء مسيرة الأحداث ، كنت أسائل نفسى عن مدى مسئوليتها فى حادث اختفاء ولى العرش · وكان يراودنى الشك بأنها ربما تكون قد دبرت له مؤامرة من أجل اخفائه ·

أما « اخناتون » فقد أكد « سيتو » انه ما من مرة غفلت فيها الملكة « تى » عنه وعن الحديث عنه · ومع ذلك ـ وحسب أقوال سيتو ـ كان المرء يشعر بضمتها المفاجىء المتكرر قبل ان تقول

عنه كلاما قاسيا وذلك بأنها كلما تذكر ولدها « اخناتون » تنتابها الثورة ويصيبها الدوار ..

كانت تسير وتسير كالبرق أمام كاتبهـا لتمر بطول صف حجراتها . وفى أوقات أخرى ، كانت تدور فى حركة دائرية ثم تغير اتجاهها فى جولات أقل طولا .

كانت تبدو كما لو كان يحيط بها رهط من كلاب الصيد وأنها تحاول أن تفلت من هذا الحصار بحركات مفاجئة غير متوقعة . وكانت ملامح وجهها توحى بجلاء بأن الملكة تختفى وراء قناع وان حقيقتها تخالف مظهرها .

لسوف تكون أنت يا نبخرع : الحياة ـ الصحة ـ القـوة . ذلك النمط من الحكم الذى أهمل منذ أمد بعيد . وسوف تتحول مصر كلها عن هذا الأسلوب فى الحياة .

وكان المراهق « نبخرع » يسير وراءها مفتونا بما تقوله الأم . وأوصته بأن يسرع فى العودة الى مدينة الأفق فور تنصيبه وان يظل بين العاصمتين طوال حكمه حتى يعمل على توحيد الامبراطورية كلها . وان يستقر بعد ذلك فى العاصمة « طيبة » .

وسوف يكون عليك أن تعيد للأسرى حريتهم ، قالت ذلك وهى توجه كلماتها الى « آييه » الذى ما لبث أن ابدى موافقتـه بايماءة من رأسه .

ومرة أخرى تختنق الملكة .

وفى حركات محمومة كانت تجذب ملابسهـا . قامت تقفز نحو احدى الفتحات . وانحنت الى الأمام ثم استنشقت ملىء رئتيها من الهواء طويلا ثم عادت بعد ذلك وأبطأت فى التقاط الأنفاس .

كانت تلك الفترة الثقيلة على النفس . كانت تحاول التعجيل بالنهاية . وها هى تعاود الكلام الى ولدها نبخرع وهى تجر أقدامها متكئة عليه :

عليك يا ولدى أن تسلك مسلكا يجعل منك الرجل العظيم . أقم المعابد للآلهة التى هجروها . مر بتشييد مقابر أبدية خالدة وأملأ هـــذه المقابر بالذهب والفضـــ والأحجار الكريمة والقمـاش والأثاث . بهذا يتسنى لك ان تخلد عبر القرون . فالثروات أطول بقاء وعمرا من القلب .

ثم توقفت وقد أثر فى أعماقها ما قالته من الكلمات . توقفت أسفة وهى تقول : لا يبقى شىء فى الأيدى ذات الأصابع المنفرجة . كل شىء ينزل من بين تلك الأصابع . لقد أفلت منهم الوجود . وربما يهجرهم الخلود !

وتقطعت أنفاسها وأنزلت القناع الذى فوق رقبتها وفكت بسرعة ياقتها ذات الصفوف المتعددة وتركتها تسقط عند قدميها ثم خلعت التاج بسرعة وألقته فتدحرج بعيدا عنها على الأرض . كانت تلهث الى درجة الضيق .

وحينئذ أصابتها ضربة عنيفة فى صدرها . وأمام هذه الضربة ظلت واقفة متماسكة ، تنتظر الضربة التالية القاضية ، فتأتى هذه لتصيبها فى صدرها وتقتلها كالصاعقة .

وتطلق صيحة مدوية ثم تنهار .

وتأمر « آيبه » بأن يفتح كل الأبواب الكبيرة . ويتجمع كبار القوم فى المدخل ويدخلون فى الصـالة التى كانت فيهـا الملكة العجوز . وكان الجنرال « حور محب » الذى كان قد استقر فى « طيبة » منذ أيام طويلة ، فى صحبة القادمين .

وقام البعض بتقويم الجثة ثم وضعوها ممددة على أحد جنبيها وقاموا بالباسها الحلى المتناثرة فى كل مكان على الأرض •

وكان الأمير الذى شهد الموت بعينه متماسكا ثابتا من جمهور البلاط • وبعد لحظة توجـه اليه « آييه » وجذبه من وسـط الجمهرة • فتوجهت اليه الأنظـار • ويراجع الجميع ليفسحوا له الطريق وهم ينحنون اجلالا وتعظيما •

وها هو واقف ثابت على منصـة ، يكاد يـذرف الدمع • متوسط الطول ، قوى البنية ، ذو ملامح دقيقة ، وملامح وجهه يبدو عليها الاتزان : الأنف حاد والفم ممتلئ والعينان سوداوان يمتد اتساعهما الى الصدغين :

ولم يترفع أى صوت • وكانت الخادمات مشغولات حول الجثة •

وكان الأمير « سمنخرع » متحيرا بين ولائه للملك وبين ضغوط زوجته « ميريه » وايعازاتها بالاستيلاء على السلطة فظل منتظرا لما تمليه عليه مسيرة الأحداث • ومنذ وفاة الملكة « تى » كانت زوجته تستحثه على العودة الى طيبة ليعرفه الجميع وخصوصا أخوه الأصغر « نبخرع » •

وكان عقل « أخناتون » يصير مظلما أثناء الليل • كان مثل النيل فى زمن الفيضان ، يتقلب أحيانا على أحد شاطئيه ، وأحيانا أخرى على الشاطئ الآخر • فكان هذا يتنقل من قرار الى قرار آخر معارضا له دون سبب واضح لذلك •

وذات مساء ، أمر الفرعون زوجته نفرتيتى بالرحيل والبقاء فى القصر الشمالى • وكان ذلك فى حضرة ولى العهد وآخرين بينما يجلس الجيمع على سطح القصر • كان عليها ان تجلس هناك أسفل الصخور فى الطرف القصى من المدينة •

وكنت فى تلك الأمسية مذعورا لما سمعته • وقد أشارت الى نفرتيتى حتى لا أظهر شيئا من ذلك • واقتربت من الملك تحاول الحديث اليه ، لكنه أدار اليها ظهره وابتعد تاركا اياها وحيـــدة وسط الحاضرين •

وفى الحال ، ظهر جواسيس « حورمحب » فى مدينة الأفق وكان هذا القائد قد بدأ يعد الجيوش ، وبدأ يظهر مقدرته الفائقة على الدبلوماسية التى أهلته الى أن يعين نائب ولى العهد فى جنوب البلاد وكان ذلك الجزء تابعا لطيبة فى الحكم •

وكان قد سبق قدوم هؤلاء الرسل والعيون ، قدوم بعض ممثلى الكاهن العظيم • ولم يتأخروا عن توقيع اتفاق مع الكاهـن العظيم « ميرينيه » • فقد وعد هؤلاء بأن يخصصوا بعض المعابد فى « طيبة » للاله « آتون » مقابل أن تظل عبادة « آمون » قائمة مع عبادة الآلهة القديمة فى مدينة الأفق •

كما حصلوا على وعد بأن يزورهم « سمنخـــرع » وزوجته وبصحبتهما « أنخيس » البنت الثالثة للفرعون لكى تتزوج « نبخرع » حتى تقوى الأواصر داخل العائلة الملكية المفككة التى هزت هـــذه التغييرات من كيانها •

وفى هذا الوقت بالذات ، عاد الى مدينة الافق فى عجالة ، « موسى » الذى كان يعمل على نشر عبادة التوحيد فى أقاليم قاصية حينما علم بالقلاقل التى كانت تؤرق الملك أخناتون •

وقد رتب له لقاء مع الملك • وكان من فى القصر يرون أن الملك صار مسالما • « وأن المرء ما عليه الا أن يفتح فمه بالكلمات ليجيبه فى النهاية حتى يهدأ هو فى النهاية » وان « رؤيا تأثيرات الهرطقة المشئومة ربما تهدىء من هياج المتذمرين » •

وحينما رأى موسى أخناتون قادما نحـــوه من آخر الصالة الواسعة ، تأثر لمظهره • وجرى نحوه مندفعا واحتضنه بذراعيه فى حركة غير عادية ذلك الجسم المتحجر ، وذلك العقل الشارد وهو يقول :

ـ لقد علمتنا الكثير •••

وقد شعر ان فى هذا الجسم المهجور ما يشبه الشرارة الخاطفة • وفي الحال اقترب الحراس من موسى يرجونه ان يتركه ويبتعد :

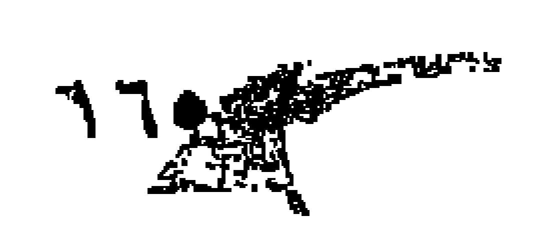
وحينما علم موسى باقصاء الملكة نفرتيتي في تخوم المدينة ، خرج فى طلبها • وكانت كل الطرق المؤدية الى مكانها مغلقة • فقد كانت الحامية من الجند تمنع الاقتراب منها •

ولم يستطع أحد فى ذلك الوقت العصيب ـ أيهـا الوالـد « أمينو » ـ أن يتنقل من مكان الى آخر دون أن يتم القبض عليه • أيها الوالد « أمينو » يا من لم آكف عن مديح بذرته التى جعلت منى قزما •

وهنا يهجر موسى « مدينة الأفق » • وهكذا ينتهى عصر لم يكن لنا أن نراه من جديد • وبعد ذلك بزمان علمت بخروجه على رأس جماعة من الناس آمنوا به •

وهل ستستمر « نفرتيتى » فى الكلام ! أظن ذلك • سوف تسعى الى أن تسود هذه العبادة حتى تموت • انها سوف تقتل قلبها الذى أرهقته المعاناة • ذلك القلب الذى أجج الفراق ناره •

وانى لعلى بينة من أنها سوف تذهب معى حتى بداية هذه القصة لكى يخلد أخناتون ومدينته • ولكن متى ؟ انى أحس انها غارقة فى الآلام ومع ذلك ، أبقى أوراقي جاهزة وتظــل ريشتى منغمسة فى المداد • وأظل صابرا أملا فى بدء الكتابة •



« كان الوقت ساعة غروب شمس أحد الأيام «يابوباستوس» . وكانت السماء تلهب الأرض . وكنت استعيد الثقة فى نفسى »

كانت آخر ليلة . وقد غلب النعاس أخناتون فى النهاية . كان جالسا بجوار « سمنخرع » ولى العهد وعليه أعراض الراحة .

كان الملك وولى العهد قد جلسا على سطح القصر مع كبار الزوار المرموقين واثنين أو ثلاثة من كهنة « طيبة » وجمع من المدعوين .

وكنت ساعتها أقف على مسافة من هذا الاجتماع تحيطنى جماعة من النسوة ، وقد أتت الينا « ميريه » حاملة فى ذراعيها أصغر أخواتها وقد رأيت من بعيد أحد كبار الكهنة وهو يتمتم فى أذن « سمنخرع » . ويقوم هذا بدوره بنقل الرسالة الى الملك .

وفجأة يقف اخناتون منتصبا بكل قامته ، ويشير الى بأصبعه ويأمرنى أن أرحل فى الحال . وأن أغلق على القصر الشمالى وألا أخرج منه .

كان يقولها بصوت حاد ، متقطع ، ورغم هذا ، لم يتأثر صوته — وتفرق المدعوون .

وبقى حولنا كبار رجال الدين وبعض من المعارف . وبقى بينى وبين أخناتون الفراغ الفسيح من البلاط . اتقدم محاولة ان أملأ هذا الفراغ وأن افهم . اتقدم اليه وكلى امل أن يتعرف هؤلاء الناس ويختفون لأجد نفسى لحظة واحدة بمفردى أمامه . لكن المحيطين به لازلوا هناك .

وحينما صرت على مقربة منه ، رأيت كلام عينيه يناقض قول شفتيه . كان فى نظرته رجاء . ماذا كان يا ترى يريد ان يعرفنى اياه ؟ وهل كان على أن أقاوم رغبته وأن أرفض طاعته ؟ أم كان

على أن أتقبل هـذا الفراق المؤقت من أجل مصلحة مدينتنا وانقاذها ؟

سوف تهب لتجدني ياابوباسنتوس ٠ ولو حدث أن وقع لك السوء وحدك ـ رغم إني لا إتصور وقوعه حتى هذه اللحظة ـ فسوف اعلن عن تحالفنا السرى هـذا ٠ فأنت الوحيد الذى سيتمسك بآخر خيط يربط بينى وبين أخناتون ٠

ان أوامر اخناتون ووعودى له تلاحقنى : « مهما عملت فانه يتحتم عليك البقاء ولا تغادرى المدينة مطلقا » ٠

ان « سمنخرع » وغيره يبدون لى وجها فاترا ٠ وارفع رأسى نحو اخناتون من أجل كلمة أو اشارة ٠٠٠

ويدير ظهره الى فجأة ٠ اراه وكذلك اسمعه ٠ اراه يترك سطح القصر ولا يبقى لى الا صدى خطواته ٠ ذلك الصدى الذى يذهب الى بعيد ٠ ومع ذهابه يخف تأثير صدى هذه الخطوات ٠

ولا يبقى لى الا أن اسير وراء الحراس ، الا ان اتركه ، وان أذهب بعيدا عنه ، هناك فى القصر الذى أشار الى أن أظل فيه ٠

ومرت تسعة اعوام ٠ ولم اكن اشك فيما سيحدث فى تلك الليلة ٠ وذلك لأنى متشبثة بخطواته ولم يكن فى مقدور أية قوة ان تقدر على تفريقنا ٠

لم اكن اشك فى تلك الليلة ان ارى اخناتون الذى كان حبى وزوجى ووالدى واخى والهى وولدى لآخر مرة ٠

ومنذ ذلك الوقت ، توالت الأحداث وتوالت ٠

رحل « سيمنخرع » و « ميريه » الى طيبة ومعهما « انخيس » الذى سوف تتزوج « تبخرع » ٠

وبعد ذلك بقليل ، يموت ولى العرش ، وادعى البعض أنه سقط من عربته وهى مسرعة • وقال الآخرون ان قطيعا من الحمير الوحشية قد دهمه حينما تاه أثناء رحلة صيد ملكية •

وقام اشراف القوم بابلاغ اخناتون الخبر واقنعوه بأن ينتقل الى « طيبة » ليشـهد جنـازة ولى العرش دون ان يصـطحب « نفرتيتى » •

وذات صباح ابحر الى « طيبة » ولم يقبل اليهـا • وحاولت عبثا ان استفسر عن سر عدم وصوله ، وحتى هذه اللحظة يبقى الأمر غامضا وتظل الشفاة ملجمة •• ولم اعرف ـ وهل سيتمكن الناس من ان يعـرفوا ؟ ـ كيف قـدم المـوت الى الملك الذى لا مثيل له •

وهل كان الموت عنيفا ؟ هل كان هادئا ؟ وهل قام اخناتون بندائه فلبى نداءه ؟ وهل ناداه حينما لم يستطع أن يسـير فى طريق الاصلاح حتى النهاية ؟ ام اخذه الموت غدرا على يد احـد اعدائه ؟

ومهما يكن ، فلتصاحب الحياة ذلك الذى تجـاوز الزمـان وسبقه •

كان اخناتون قد امر بحفر مدافن من اجلنا هنا فى هـذا الشاطىء الصخرى الذى يتكىء عليه القصر الشمالى •

وقد اختار هذا المكان الذى تكسوه الشمس الحارة وتغمره رياح الصحراء • وذلك بسبب عزلته وخلوه من النباتات • ولمـا كانت عملية تتوقف على الدوام لأنه كان يرى ضرورة فى الاهتمام بالقوات اللازمة للدفاع عن المدينة • مما ابقى على هذه المقابر مـن غير اتمام •

لن يسجن اخناتون أية مقبرة ولا أية مومياء ! لقـــد انهى مشواره ولحق بالشمس المليئة بالحركة . هذه الشـــمس التى لا مملكة في حوزتها والتى لا يصيبها الأفول .

اخناتون الذى كان دائما فى اطار جسمه ، كان دائما فى الزمان ، على الأرض .. ان هذا الاختفاء يشبهه . وان عقلا فى مثل حرية عقله واتساعه لا يمـــكن الا أن يتحـــد مع الهـواء والريح .

وبعد ذلك اعتلى « نبخزع » العرش . ذلك الذى اشتهر باسم « توت عنخ آمون » وكان يرافقه على الدوام الجنرال « حورمحب » والوزير « آييه » . وقد ظهر اسم كل منهما بعد ذلك كثيرا عـلى شحنات البريد الواردة من الملك . .

وكانت عظمة الاحتفالات وأبهة المواكب المفرطة توحى فى اعين الناس بأن عبادة « آمون » قد افلت وولت .

ومع ذلك ، فلم تكن هناك أية مشكلة فى الهجرة من « مدينة الأفق » التى كانت تتمتع بالهيبة والمنزلة على الدوام . وقد تعاطفت نفرتيتى التى كانت على قيد الحياة والتى كانوا قد خففوا عنهـــا الحراسة منذ اختفاء اخناتون ، تعاطفت مع البعض من أفراد الشعب. وبفضلها عاشت المدينة فترة من الزمن تتطلع الى بقايا الأمل . ولم يتمكن احد من أن يهمل الاله « آتون » الذى صار له عدد مـــن الأتباع .

وقد استمع « توت عنخ آتون » وزوجتـــه « أنخيس » الى نصائح كبار الشخصيات فى طيبة . وهرعوا الى مدينة الأرض .. وقد تذكر هذا الفرعون الشاب ان المدينة بهرته حين زارها مـن قبل مع الملكة « تى » . بل وكان ينظر بعين الغيرة والحســد الى

« سمنخرع » لأنه استطاع البقاء فيها . أما « أنخيبس » فلم تكن تشعر بالسعادة لعودتها الى مكان طفولتها .

وقد اسرع العاهل الشاب وزوجته حال وصولهما الى القصر العلوى فى المدينة . وأوحى دخولهما القصر الى الملكة « نفرتيتى » ذكرى دخولهما مع أخناتون . وحسبت ان كل شىء سوف يعود من جديد وأن النزعة الى الاصلاح الدينى سوف تنبعث فيها الحياة من جديد .

ولكن ابنتها « انخنيس » وزوجها « توت عنخ آتون » لم يلبثا ان اكتشفا عكس ما كانا يتوقعانه . فقد كانت « مدينة الأفق » فى حالة لا تعكس ماضيها البراق ومكانتها المرموقة .

وكان كل شىء ذابلا يدمغه الفتور : تلك المعابد المهجورة تحولت الى اغراض اخرى غير شئون العبادة . وهذه منازل لم يكتب لها السكنى بعد البناء . وتلك كلاب تجوب المدينة بدون أصحابها . والمزارع المهجورة تموت فيها الماشية . حتى ان دور العبادة المتهدمة كانت تقدم الاحجار المنزوعة للمبانى الأخرى . كل شىء كان يعطى انطباعا بأن المدينة صارت مهجورة وكأنها مدينة للأشباح . ورغم جهود نفرتيتى المتواصلة كانت المدينة تزداد تفككا وانهيارا كل يوم . ولم يعد لها مثيل .

أيمكن هنا أن اتحدث عن « سنبب » ؟

ذلك الحزن عليه لن يفارقنى على الاطلاق . كنت أعود الى الملكة دائما خلال الساعات التى كنت فيها أحاول يائسا معرفة مصير اخناتون . وكنت أجد دماءها هاربة ، أراها محمومة لا تعرف الراحة لحظة . فقدت أيامها ثعبانى « سنبب » وبكيت عليه بكاء مرا . كنت اخشى ان يكون ضحية للثعالب التى تأوى الى المساكن المهجورة بالليل .

ورغم أن « نوبا » عاملة المجداف ألحت على كثيرا بأن أستبدل به حيوانا آخر ، فلم اقدر على ذلك • وها هى تنذر قلبها وقواها لجميع الكلاب الضالة ـ كلاب البيوت الملكية ومعها الكلاب الأخرى ـ فتقوم برعايتها وتغذيتها •

وحسب ظنى أدركت أن نفرتيتى لا ترى فى « توت عنخ آتون » شبها بأية حال من الفرعون السابق « اخناتون » • لم تر فيـــه روح اخناتون المتوقدة الجموحة المقدامة ولا نظرته الجريئـــة • لا شيء فى أى من هؤلاء يشبه هذه الشخصية اللينة التى تنحنى أمام الرسميات • فلم تر فيه الشخصية التى خلقت للعبادة وانما رأت فيه شخصية خلقت لتكون تابعة •

وها هو بدوره يقيم فى عاصمة ثم ينتقل الى الأخرى ليصلح بين المدينتين وبين العقيدتين • وها هــو يعيد « آتون » الى الدور الثانوى الذى كان يقوم به قبل أن يقع ما حدث من تغييرات لتدعيم معبده وتقويته فى ضواحى مدينة طيبة •

وفى نفس الوقت يقيم تمثالا ضخما من أجل « آمون » فى مدينة الأفق وبهذا يترك « توت عنخ آتون » عبـــادة التوحيـــد دون أدنى مقاومة ليعود الى عبادة مجمع الأرباب •

وقريبا بعد ذلك ينادى هذا الفرعون بـ « توت عنخ آمون » متخليا بذلك عن جزء من اسمه • ومنذ ذلك الحين ، لم يكن هنـــاك شك فى تسيد مدينة طيبة وتسيد الآلهة القديمة •

وعلى العكس من ذلك ، بدت مدينة الأفق مضمحلة على حافة الهاوية رغم اصرار الملكة نفرتيتى وجهودها وجهود اتباعها •

حكم الفرعون الصغير الوديع « توت عنخ آمون » سبعة أعوام وأثناء مراسم جنازته ظهرت معالم الأبهة التى فاقت الأبهة والفخامة

التى دفن بها من سبـــبقوه من الفراعين . فملئت مقبرته بالكنوز الوفيرة .

وفوق مومياته كان يحمل صورة آتون فاتحا يديه . ومع هذه الصورة كانت هناك صورة أخرى . ذلك الآله الذى هجروه .

واستمر « آييه » العجوز يدير شئون البلاد على مقربة مـن « أنخيس » لكن هذه الفترة لم تدم طويلا . وانتهى حكم « وزير التموين » بسرعة مسرعة .

وكان الجنرال « حور محب » يعد العدة لدخول المدينة منـذ زمن طويل .

وفى أيامى الأخيرة ، أجد الصعوبة فى اخراج الكلمات من بين شفتى الملكة « نفرتيتى » وغالبا ما وجدت نفسى مضطرا أن أكمل قصتها دون ان انتظر العون منها .

فاحيانا ما يكون غياب اخناتون بالنسبة لها امرا لا يطاق . ان هناك جرحا يستتر فيها . وحينئذ تختفى فى مغارات تتمزق فيها الفكرة وتنقطع فيها الذكريات . وساعتها لا يستطيع المـرء ان يقدم لها العون أو المشاطرة .

ومع ذلك ، فأنا اعلم أن لهبا ضعيفا يعيش فى داخلها لا يمكن ان يتحكم فيه وأعلم ان هذا اللهب مشتعل على الدوام فى اعماق القصر العلوى ، مثل حلم يتعلق بالغد أو حلم دائم الحياة .

وهذا هو « حور محب » ، يتزوج من أخت الملكة « تى » وهى فى الثلاثين منعمرها . يتزوجها رغبة منه فى ان يرتبط بالأسرة الملكية ودون ان يكون له اى ارتباط بدم « اخناتون » الفاضـــح الشنائن . كما ننوه الى ان زوجة « حور محب » امضنت طوال حياتها بعيدة عن البلاط .

وقد توج القائد الأعلى للجيش ، الذى كان يطلق عليه مـن قبل « عظيم العظماء ، قوى الأقوياء ، توج وسط هتافات الجماهير المتحمسة ٠

وبدأت السجلات تؤرخ بداية حكمه اثر موت « أمينـوفيس الثالث » فقد اعتبر نفسه استمرارا حقيقيا له ٠

وأيام حكم اخناتون وتحت قيادة « آيبه » ، لم ينتهك أى قداس للاله « آتون » ٠ ولم يكن العداء القديم للفرعون القديم قد انطلق له العنان بعد ٠

ولكن الحكيم « حور محب » أعلن أنه جاء فى النهاية لينقذ البلد من الفوضى والمثالية الخيالية ويقيم النظام والعمل ٠ كمـا أعلن أنه سوف ـ كما كان يؤكد على الدوام ـ يضع حـدا لتراخى السلطة كما سيعمل على تحسين ظروف الشعب ٠ وانه سيقطع أنف كل من يخل بواجبات الوظيفة ٠

وعمل العاهل على القيام باصلاح مضاد وسار نحـوه بخطى واسعة عملاقة مما جعله ينحرف عن الطريق الى التعصب الممقوت ٠ وأصدر منشورات وارسل الرجال الى الحدود وطارد اتباع اخناتون فى كل مكان ٠

وسار الأسرى من الزعماء فى شوارع طيبة باستمرار وكذلك سار السـجناء موثوقى الأيدى ٠ وترك موسى وقومه أرض مصر وسار بهم نحو الشمال باحثا عن وطن جديد ٠ كما قتـل بعض أقارب الفرعون القديم ومنهم « أنخيس » ٠

وامتلأت المعابد بالثروات فى نفس الوقت ، ونحتت وأقيمت مئات التماثيل من الأحجار النـادرة ٠ وسرعان ما استعاد كبار الكهنة سلطانهم بعد ان أحاط بهم الكثير من الخدم والتابعين ٠

وإخيرا يقوم الجنرال « حور محب » بهدم مدينة الأفق وهـو يقول أنها يجب أن تسحق وتباد وتمسح من ذاكرة الناس ٠

وسقطت المدينة بشعبها الأعزل لا يقدر على اظهار أى نوع من المقاومة ٠ سقطت فى أياد معادية شرسـة ٠ وقامت فصائل حاقدة ومتعصبة بهدم المنشئات وضرب اسمى اخناتون ونفرتيتى بالمطارق كما كسروا رؤوس وأعضاء التماثيل ٠

وعلاوة على الضـجيج المزعج المفزع أسـمع صـياح الناس احتجاجا على ذلك « الآثم الملحد المجرم » ولو كانت مومياء اخناتون موجودة ، لرفضوا أن يضعوا لها حجرا يريح رأسـه ٠ ولأحالوا جسده الى رماد ونشروا هذا التراب مع الرياح تذروه فى جهات العالم الأربع ٠

وفى القصر العلوى الذى كنت أقيم فيه وحيدة مع نفرتيتى ، كان أحد الحراس يقوم بوضع بعض المؤن ثم يختفى ، وذلك بالرغم من رغبتنا فى مخالطة الناس ، ورغم محاولاتى ومناوراتى ، لم نتمكن من اجتياز الأبواب التى يقوم بحراستها جنود مسلحون ٠

ومن فوق السـطح ، كنا ننظر من وراء حـواف الجـدران والأعمدة ، مندهشين من حماس القائمين بالهـدم وصغرهم ٠ كنا نرى جدرا وأعمدة وأسطحا تنهـار فيما يشـبه صاعقة من الغبار والضجيج ٠

وشاهدنا فى انهيار تام تهدم مدينتنا ٠ فكنا نتمنى أن نقبض أرواحنا ٠ لكن أى قاتل لم يتسلل الينا ! فى هذا المكان ٠ لم يأت أحد ! لم يأت أحد !

وقد رأى « حور محب » أن يبقى على القصر الشمالى دون أن

يهدمه واضعا بلا شك في اعتباره أن أشيد عقاب ينزله ب «نفرتيتى» أن يجعلها ترى بعينيها انهيار حلم اخناتون ٠

وهرب آخر من كانوا يقطنون المدينة واعتنق البعض منهم أفكار الغالبين المنتصرين ٠ وتكدست الأقذار فى الشوارع وانتشرت أكوام التراب ٠

وساد الآن الصمت فى كل الأرجاء ، وتوافدت على مدينتنا طيور ضخمة نهمة كما وفدت اليها حيوانات الصحراء ٠

لم تعد مدينة الأفق غير مسطح مستو تضيؤه مربعات ومثلثات وخطوط ٠ وكانت هذه ذات مغزى فى النفس ٠ وهى حية تماما مثل الكتابة على صفحة من الورق ٠ وكل يوم أرى الأشياء أقل وضوحا واتساقا ٠ فهل يا ترى يكون السبب فى ذلك ما يجرى لعينى اليسرى من انغلاق تدريجى ؟

وليس الماضى بالنسبة لى الا المستقبل ذاته ٠

فلا شيء ، لا شيء يمكن أن يقنعنى على الاطلاق أن كل شيء قد مات وانتهى ٠ لا جداول المياه الجافة ، ولا الصخور المتساقطة من الشاطيء الصخرى ، وتلك الرياح الشتوية الباردة التى تزأر فى الشوارع العارية ، وذلك السعير الذى يتلاطم ، والصيف على أرض بلا أشجار ٠ الفراغ ، الغياب ، الغياب الفراغ ٠

بجانبى وفى أى مكان آخر ، كان شيء مستمر فى الحياة ٠ النيل يتابع مسيرته ، وطائر المازور الصياد يستمر فى طيرانه كذلك ، والأرض تتابع دورة فصولها ٠٠٠

وهناك حيا ٠ فى أى مكان آخر وبجانبى وحضور آخر فى أماكن أخرى وأزمان أخرى ٠٠٠

واذا كانت أصواتنا ليست غير أصواتنا يا « بوباستوس » فلن تتمكن من الوصـــول الى أصـــوات أخرى • ولن تتمكن هذه الأصوات من اظهار الأفق دونما اعتبار لاخناتون •

وبالنسبة له ، ذلك الذى لم يسع الى نصر أو انتصــار ، بالنسبة لذلك الذى لن تنقطع شمسه عن احياء بصيص الأمل فقد كانت هذه خطوة نحو الأمل ، تلك الشمس الخصبة أثناء الغرق ، أثناء السقوط وأثناء الليل •

هــذا الحلم ، آثار هذه المدينة التى فيهــا أعيش وأدرك • ولسوف تبدو على السطح فيما بعد تلال من مدينتنا • من كل بقاياها •

لن أترك شيئا وأتركه •

حتى النهاية •

واليوم يأتى المخطوط الى نهايته • وقد بلغت نفرتيتى أكثر من أربعين عاما • سوف تختفى ثم تموت •

وسوف أعثر فيمــا بعد على جسدهــا • سوف أعثر عليه مختلطا بأنقاض مدينتها •

وساعتها • أتوقع قدوم كثير من الزوار • وســوف يبقى وجود الملكة ، وتظل أنفاسها طويلا • ستبقى حية فى المدينة التى انطفأ نورها وخمد • وسوف تجذب هؤلاء الزوار •

ولو تلمست الثقة فى أحد هؤلاء الزوار ولمستها ، سوف أعطيه هذه المذكرات • والا قمت بدفنها فى مكان آمن من الأرض ، ليعثر عليها المنقبون بعد ذلك •

ولا أملك الجرأة الكافية للتفكير فيما سيصير اليه حال ورق

البردى حينما ينتقل من يد كاتب الى يد كاتب آخر ، ومن قرن الى قرن آخر يأتى بعده !

وبخصوص جهدى وما قمت به ، فان تسجيل هذه الأحداث قد تم طبقا لاجتهادات ذاكرتى ، وطبقا لما كان يملى على من الكلمات ٠

ولكن يمكننى أن أؤكد ــ دون أن أكذب ــ أنه بين كلمات نفرتيتى وبين كتابتى ، لم تنزلق أية أفكار أو أية مشاعر من عند ذاتى على ما أظن ٠

تواريخ حسب ماورد بالرواية

	ق م .
١ ــ ميلاد نفرتيتى	سنة ١٣٨٨
٢ ــ ميلاد أمينوفيس الرابع الملقب بأخناتون وولد أمينوفيس الثالث وزوجته الملكة « تى »	« ١٣٨٧
٣ ــ تولى أمينوفيس الرابع ولاية العهد	« ١٣٧١
٤ ــ موت أمينوفيس الثالث	« ١٣٧٠
٥ ــ مولد سمنخرع ولد أمينوفيس الثالث	« ١٣٧٠
٦ ــ مولد نبخرع الملقب بـ « توت عنخ آمون ولد أمينوفيس الثالث	« ١٣٦٩
٧ ــ أخناتون ونفرتيتى يغادران طيبة بحثا عن مدينة الأفق « مدينتهما »	« ١٣٦٩
٨ ــ مولد ابنتهما الكبرى « ميريه » زوجة سمنخرع فيما بعد	« ١٣٦٨
٩ ــ مولد ابنتهما « ميكيه »	« ١٣٦٧
١٠ ــ نهاية مدينة الأفق	« ١٣٦٦

١١ ـ ميلاد ابنتهما الثالثة « أنخيس »
وزوجة « توت عنخ آمون » فيما بعد
سنة ١٣٦٦

١٢ ـ أول زيارة قامت بها الملكة « تى»
لمدينة الأفق « ١٣٦٢

١٣ ـ ميلاد « باكيه » البنت الرابعة « ١٣٦٠

١٤ ـ ميلاد « نفر» البنت الخامسة « ١٣٥٨

١٥ ـ موت « ميكيه» « ١٣٥٨

١٦ ـ مولد « سيتيب » البنت السادسة « ١٣٥٧

١٧ ـ موت الملكة « تى » « ١٣٥٥

١٨ ـ سمنخرع يتولى « وليا للعهد » فى
مدينة أخناتون « ١٣٥٥

١٩ ـ موت أخناتون « ١٣٥٤

٢٠ ـ فترة حكم « توت عنخ آمون » « ١٣٤٧ ـ ١٣٥٤

٢١ ـ فترة حكم الجنرال القائد «حورمحب» « ١٣٢٧ ـ ١٣٤٧

٢٢ ـ هدم مدينة الأفق « ١٣٤٧

٢٣ ـ موت نفرتيتى المتوقع حدوثه فى
هذا العام « ١٣٤٤

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ الطبق الطائر
٢ ـ فى مهب الريح
٣ ـ عود الورد الأسبانى
٤ ـ قطار فى الجليد
٥ ـ تل العشاق
٦ ـ من قتل موليرو ؟
٧ ـ حياة الغـاب
٨ ـ مستر تشيبسى
٩ ـ شحاذون ومعتزون
١٠ ـ ليلة القدر
١١ ـ النسر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧١٤٨

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٩٤٧ ـ ٤

صدر من هذه السلسلة



« نفرتيتي وحلم إخناتون » رواية مصرية لكاتبة مصرية هى أندريه شديد ، ولكنها تعيش فى فرنسا وتكتب بالفرنسية .. وهى مؤلفة « اليوم السادس » و « الجلد الضيق » وكلها أعمال تتحدث عن مصر ..

أما هذه الرواية فقد فازت بجائزة إفريقيا والبحر المتوسط ، وهى تتناول عصرا من أزهى عصور مصر الفرعونية التى امتد نفوذها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بالتسامح والحب ونبذ العنف والأحقاد ..

١٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب